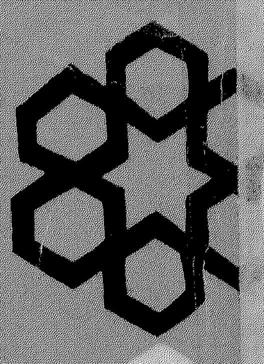
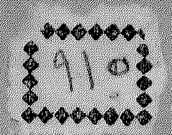
زكي مبارك

الأخلاق عند الغزالي



" وكلما عظم المطلوب وشرف ، صعب مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته "
الغزالي



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر



زكى مبارك

الأخلاق عند الغزالى

" وكلما عظم المطلوب وشرف ، صعب مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته "

الغزالى

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا » ولقب « دكتور فى الآداب » ٠

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمى

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبا بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنه المفتريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمى كتب اليه خطابا يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالتثبت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل .

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة ، ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب

أخى العزيز :

طالما وجدنا فى تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضا بالنقد والتجريح . وطالما غلوا فى النقد حتى انقلب ايذاء وايلاما .

ولكن هل أخفت شدة النقد يوما فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضن الزمان على المنتقدين بما هم أهل له من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس الا أداة لاظهار الحقائق واضحة جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل فى اظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه الى موارد العلم ، وخوضه فى مسائل كانت سببا فى يقظة هذا الباحث الأخير .

* * *

الا أنه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا فى أزمنتهم ، وأمكنتهم ،

وأن نتمثل ما استخدموه للحصـــول على الحقائق من مختلف الأدوات ، لكى نلتمس لهم العذر ، اذ رأيناهم لم يصلوا الى الاغوار البعيدة التى ينبع منها الماء صافيا نقيا •

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك ايها الاخ العزيز نعجب بأصحاب القسىّ والنبال ، اذ لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم الثبـات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبعث من زيوت المصابيح ، لانها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام •

فاذا رأينا الغزالى غفل عن حقيقة تنبهنا نحن اليها ، أو أغلق عليـه موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، أو تنافض فى فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف كانت وسائله الى الفهم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتثريب •

ان أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليـــوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعةً لله • فمن ثم حفظـوا كثيرا ، وكتبـوا كثيرا ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العـــلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالسمين ، وعرض لهم الضـعف ، والتناقض ، والاضطراب •

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتنـاول الشـــباب المثقف كتب المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبين ما فيهـــا من الخطـأ والصواب •

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التى أنشئت لوصـــل

القديم بالجديد ، وحثّ الخلف ، على الانتفاع بميراث السلف ، وانقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطىء من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموتا لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن فى النقد الصحيح تهذيبا للمشاعر ، وتنويرا للعقول •

وانما يخطىء من يبالغ فى حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؟ أو يبالغ فى بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيرا من الحسنات • والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الزوايا المتعددة التى تنظر منها الى الحقائق شكلا واحدا منسجم الترتيب تنظر من نواحيه الى تلك الحقائق • فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق •

* * *

وأنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام ، حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطىء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب •

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك قارص اللوم ، ومر التأنيب •

كانت رسالتك مثارا للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لن نغضب

لذلك . لأنَّا نريد أن تخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك الا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتمادى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق الا الضلال .

★ ★ ★

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطا بعيدا فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطلق ، وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها فى هذا المدى خطوات . وان كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعا من المسرفين .

واذا كان لى أن أنصحك ــ ومن الواجب أن أنصحك ــ فانى أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال .

لقد فات كثيرا من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصـــار القديم بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعـــاهد الدينية ، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزمـلاءك ، وجـــادلتهم بالتى هى أحسن ، لتسيروا أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد .

اننى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصـنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب، ومختلف الأرجاء ؟

ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدأت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الاصـلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله .

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام .

منصور فهمى

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الازهر الشريف عرا لا تقدر على فصمها الليالى • ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى • فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات ـ لا قدر الله ولا سمح ـ فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل •

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب علىّ فانك وحدك التواب الغفور •



فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين •

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد •

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) أقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب •

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض • وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛ وانما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون •

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف مالاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد اخوانه بقوله : « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن

العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفسك ، لا تضيق به صدرك وفل من غربك قليلا ، (واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا)، واستحقر من لايحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، واياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى افحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد تُرجَى ازالتها　　الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس . أو ما سمعت قوله تعالى : « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض او سلما فى السماء فتاتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » [1] . وقوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » [2] . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » [3] .

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لا نريد أن يفتن

---

(١) كبر : شق . النفق : سرب فى الارض .

(٢) يعرجون : يصعدون . سكرت : حبست عن النظر .

(٣) قبلا : عيانا ومقابلة ، وأخطأ النسفى حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل .

الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقـــول المفترين ، وتزيد المعتدين ؟

« على الله توكلنا • ربنا افتــح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خـــير الفاتحين » ؟

محمد زكى عبد السلام مبارك

الباب الأول

فى العصر الذى عاش فيه الغزالى

تمهيد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذى عاش فيه الغزالى ؛ وليس ذلك لآن الغزالى صورة لعصره • بل ليعرف القارىء الى أى حد تأثر الغزالى بعصره وأثر فيه • فمن المجازفة أن ندرس عصرا من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ؛ وانما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف • ثم نبحث عن المؤثرات التى كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة • وفقا لما أحاط بالشخص من الظروف •

ولتوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التى كونت وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس أبى نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبى العلاء أنتج رجالا يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وأن عصر أبى نواس أخرج رجالا لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولا ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذى ظهرت فيه • كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات •

والا فحدثني كيف يكون الشيخ محمود خطّاب السبكي صورة لهذا العصر ، وهو يكوّن من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؟ وأمثال الشيخ السبكي عديدون ، ولكني خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوما في زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التي كونت عقلية هذا الرجل الذي يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك في تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وانما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففي مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفيني القارىء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذي عاش فيه الغزالي وأكتفي بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة في عصره ، ليتمثل القارىء زمان الغزالي ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل في حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالي في الأخلاق .

الفصـــل الأول

الدولة السلجوقية

- ١ -

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التي تفيأ الغزالى ظلها الظليل •

ذكر الأستاذ محمد الخضرى (بك) فى محاضراته فى الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمسة بيوت : الأول السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز • والثانى سلاجقة كرمان • والثالث سلاجقة العراق • والرابع سلاجقة سورية • والخامس سلاجقة الروم •

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٩م الى سنة ٥٢٢ هـ ـ ١١٢٧ م • وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم •

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة • من ٤٣٢ هـ ـ ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٨ م • وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان •

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ ـ ١١١٧ م • وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ـ ١١٩٤ م على أيدى شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة •

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق • وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م• وانتهت سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م • على أيدى الدولتين : النورية والأرتقية• فكانت حياتها ٢٤ سنة •

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصرا ، فكانوا من بيت قطامش ابن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧م• وانتهت سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م • فهى أطول دول السلاجقة حياة ، اذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول •

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ ، أى ١٤٣ سنة •

واستخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهـــده العصر البويهى ، وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة •

- ٢ -

عاصر الغزالى أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقـــد شهد عهد عضد الدين أبى شجاع ألب ارســلان ، وجــلال الدين أبى الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبى المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه •

وقد ولد الغزالى فى آخر عهد طغرل بك ، الذى ملك بغـــداد ، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه • والذى تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسى • وهو أمر لم تجر به العادة • فأرسل ســـنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها فى حديث طويل •

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفى عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالى ، وسنعود اليها بعد قليل • وأما محمد بن ملكشاه فهو الذى وضع له الغزالى كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك •

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد •

الفصل الثانى

الباطنيـة

فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة الى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التى أجملنا حالها فى الفصل الماضى ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهمون ببسط سلطانهم على أقطار المشرق ، بعناية الدعاة •

والذى يعنينى الآن هو اجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالى شغل بهم، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هذا الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم بالميل اليهم ، اذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول •

وأحب أن يعرف القارىء أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس الا أثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق، والفاطميون فى الغرب ، و (كل حزب بما لديهم فرحون) •

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملئون تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ، والأضاليل ؛

وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الاسلام ! !

ولولا خوف الاطالة لشرحت للقارىء طرائق الباطنية فى نشرالدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الانجليز والفرنسويين،والامريكان فى العصر الحديث ، وكانت جنايتهم شديدة الخطر فى مسخ عقول الامم الاسلامية المسكينة ، التى قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدى طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاة الباطنية لمكرهم ينتقلون بالطالب من حال الى حال ، فيفهمونه أولا أن الآفة التى نزلت بالأمة فشتتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب الا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد ــ فيما يزعمون ــ ليس هو ما تعرفه العامة ، بل هو علم خفى غامض ، ستره الله فى حجبه ، وعظمه عن ابتذال أسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه ، الا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب فى مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم الى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس .

وأشهر دعاة الباطنية فى الشرق هوالحسن بن الصباح . الذى رحل الى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (ألموت) وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه فى الأقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب .

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع الى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آرائهم ان شاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، فان فى آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم فى عدة مواطن من كتب الغزالى ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » فليعد اليه من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

- ١ -

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، فى قونية واقصرا ، وما اليهما من البلاد، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجأ قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من أيدى المسلمين .

وأود أن يعرف القارىء أن الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، واخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدا من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين

يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال .

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدى الشعوب القوية ، وغلّ فى أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودنياه ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه دينا حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، فى حين أن المسلمين كانوا يبكون فى مساجدهم يوم الجمعه ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكد ، فما استمع لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وانما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ! والا فحدثنى لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب . فان أدى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأحبار والرهبان ، وأمثال الأحبار والرهبان . ومن كان فى ريب مما نقول فليسأل التاريخ .

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها امارات سميت بالامارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف منها حملة الصليب .

وأول ما أسس من هذه الامارات امارة الرها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا

بيت المقدس • وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء •

- ٢ -

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، فى اعداد الخطب وتحبير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الغـــزالى (حجة الاسلام) غارقا فى خلوته ، منكبا على أوراده • لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد ! ! ويكفى أن نذكر أن الافرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عددا لا يحصيه الا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته •

وما ذكرنا هذه المأساة الا لنعد القارىء لفهم حياة الغزالى ، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فان كتب الغزالى لا تنبئنا بشىء عن تلك الأزمة التى عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية •

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المـرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود حالة لا تقضى فيها الأخلاق •

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة الى «نظام الملك» : وزير السلطان ألب أرسلان، وابنه ملكشاه. مكث في الوزارة ثلاثين سنة: عشر منها في سلطنة ألب أرسلان. وعشرون في سلطنة ملكشاه. وقد مات «نظام الملك» قتيلا، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله : فمنهم من يروى أنه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠ر٠٠٠ دينار في السنة ، وشي به بعضهم الى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بني : أنا شيخ أعجمي ، لو نودي عليّ في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركي ، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا ! وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهي مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي، والخمور ، والملاهي، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم، صفوفا بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجي زيدان في كتاب « التمدن الاسلامي » عن كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن « نظام الملك » توفي مقتولا سنة ٤٨٥ هـ .

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن « نظام الملك » ولى حفيده عثمان

ابن جمال الملك أعمال مرو، وأرسل السلطان اليها شحنة[1] اسمه قودن، وهو من خواصه ، فنازع عثمان فى شىء . فحملت عثمان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ؛ فقصد السلطان ملكشاه مستغيثا شاكيا فاغتاظ السلطان ملكشاه لاستبداد « نظام الملك » وبنيه ، وخروجهم على حدود سلطتهم . وأرسل الى نظام الملك رسالة يقول فيها : (ان كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد جاوزوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا ... الخ) .

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : اذا كنت لم تعلم بعد أنى شريكك فى الملك ، فاعلم ! فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأيى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقمت بتدبير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت فى ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور اليك ، وأطاعك القاصى والدانى أقبلت تنتحل لى الذنوب ، وتسمع فىّ الوشايات. قولوا للسلطان : ان دواتى مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك .

والاقرب الى الصواب ما ذكره الاستاذ محمد (بك) الخضرى فى محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره الى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسن بن الصباح ، وأخذ عليه الطرق .

---

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة .

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظـــام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص في تلك الأيام المظلمة ، التي طبعت بطابع الاســـتبداد وكان الأمر فيهـا للهوى ، والحكم للجبروت ! !

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمةً صاغهاالرحمن من شرف

بدت فلم تعرف الأيام قيمتهـا ... فردها غيرةً منه الى الصــدف

★ ★ ★

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارسه في أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك، كما يفعل الأوربيون والأمريكيون في هذا الجيل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من أمضى الأسلحة في استلال السخائم من الصـدور ، والسـياسة أدهى وأمكر من أن تغفل مثل هذا السلاح !!

وكذلك عنى نظام الملك بانشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشــام ، والعراق ، وخراســان ، وهكذا فهم روح العصر فاســتغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان اذا دخل عليه الأئمة الاكابر لا يقــوم لهم ، ويجلس في مسنده ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل اليه يقــوم له ، ويجلســه في مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه سئل عن ذلك فقال : ان أولئك اذا دخلوا يثنون عليّ بما ليس فيّ ، فيزيدني كلامهم عجباً وتيها وهــذا يذكرني بعيوب نفسي فأرجع عن كثير مما أنا فيه !!

واذا صحت هذه الرواية ، فانهـا تدل على أن علماء ذلك العصر

كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى اذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس .

ومهما تكن نيات نظام الملك ـ والله عليم بذات الصدور ـ فانه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمساكن ، والحمامات ، وظلت مدارسه بأوقافها زمناً ليس بالقليل ، وتخرّج منها كثير من العلماء والأدباء .

***

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالى ، فقد تلقى العلم فى مدرسة نيسابور . وتولى التدريس فى مدرسة بغداد ، وسنعود الى تفصيل ذلك فى غير هذا الباب .

الفصل الخامس
روح ذلك العصر

- ١ -

من الصعب تحديد الروح السائد فى عصر من العصور ، وانما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذى يدرسه .

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هى الصفة الغالبة فى ذلك العصر مع شىء من المكر فى الأمراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » من أن الناس

كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد : انها عين أصابت الاسلام!
وما نقل السبكى من أن أحد معاصريه سمعه يقول : « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى بشىء تنتفعون به ، فقال لى : وما هى تعلقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى المخلاة • قال الغزالى : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » •

والسذاجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى الى حفظها حاجة ، افة عظيمة فى تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الرأى ، وصواب الحكم •

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك فى وصيته [1] التى تركها لخلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان ، مبجلا مهيبا ، وقد نيف على الخمس والثمانين • وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل • وهنالك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرا الصداقة

(١) مقدمة السباعى لرباعيات عمر الخيام •

ولحظنى بعين عنايته ، وأنزلته من نفسى أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول ما نزلت به ، وجلست فى حلقته ، لقيت تلميذين فى مثل سنى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الامام الموفق . وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين فى الفطنة والذكاء فانس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتنها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذاكرنا ما ثلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالى نيسابور ، أما الحسن ابن الصباح فكان أبوه ناسكا ورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صح فى أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيبا عزاً واقبالا وثروة وجاها ، فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعا فانه لا بد أن يقع لواحد منا ، فماذا يكون حق الاثنين الخائبين على ذلك الفائز الظاهر ؟ فلنا له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلنتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشىء دون أخويه . فاجبنا : ليكن ذلك كما قلتَ . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولا فى فضاء الله ، الى غزنة ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة فى سلطنة السلطان ألب أرسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباى . فأتيانى يطلبان انجاز وعدى القديم واشراكهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء » .

والذى يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد فى عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق اليه العز والجاه » وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الاحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان الطلبة يتغنون بها فى حلقات الدروس .

وقد رأينا فى الفصل السالف كيف منّ « نظام الملك » على ملكشاه

بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة الى دعـــوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء • وانما تحرس الأمم بالعلم فى اقامة ما اعوج من الأخلاق وايقاظ ما خمد من النفوس ، واحياء ما اندرس من آثار العقول •

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات والأحلام وهى شارة الارتياب فى الواقع ، والايمان بالخيال •

- ٢ -

أما ما كان فى ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرة مبعثرة فى الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالى شهيدة على ذلك ، فكثيرا ما نراه يشن الغارة على العلماء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم فى الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالى يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحـدث عن الاتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى ، وهم فى أنفسهم أنصار غىّ وضلال وانما قلنا انه يمثل عصره ، لأنه يتكلم فى هـــذه الشئون بحماسة عظيمة ، ليست صـدى لمطالعاته فى المؤلفات القديمة ، وانمـا هى أثر لغضـبته من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء • وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة ، ولكن المعرى كان غير مسموع الكلمة فى نقدهم ، أما الغزالى فكانت كلمته فى ذمهـم شديدة الأثر ، لأنه صوفى ، ولأن تلامذته كانوا عوناً له على نشر مايريده•

واليك أنموذجا من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عـدلوا عن المنهـاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، الا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البـــلاد ان كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن

قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات ، والتواجد ، ولو على اغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل » • ص ٤٠٥ ج ٣ احياء •

على أن الغزالى كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب •

أما مكر الامراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة وجرهم الى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة اسلامية حاربت أختها باسم الملك ، في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقودا لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين • ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض •

الفصل السادس
البلدان التى عرفها الغزالى

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التى عرفها الغزالى ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج الى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبى العلاء ، فليرجع اليه من أراد •

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت [1] لقرب مؤلفه

(١) توفى ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان فى سنة ٦٢٦ هـ . وكتابه من أجود ما عرف العرب فى القواميس الجغرافية .

من ذلك العصر ، ولانه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس اذ ذاك •

طوس

مدينة بخراسان، تشتمل على بلدتين يقال لاحداهما الطابران (وهي التي دفن بهـا الغزالي) وللأخرى توقان ، ولهما اكثر من الف قرية ، فتحت في ايام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر علي بن موسى الرضا وبها ايضا قبر هرون الرشيد • وقال مسعر بن المهلهل : وطوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها اثار أبنية اسلامية جليلة، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل في مثله ، وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم ار مثله علو جدران ، واحكام بنيان ، وفي داخله مقاصير تحار في حسنها الأوهام ، وازاج ، [1] واروقة ، وخزائن وحجر للخلوة، وسالت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار الى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره في مكان يسكن اليه ، ويسير متخففاً ، فبنى هذا القصر واجرى له نهرا عظيمـا أثاره بينـــة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمه ، ومضى الى الصـــين فبلغ ما اراد ، وانصرف فحمل بعض ما كان جعله في القصر ، وبقيت له فيه بعــد أموال وذخائر تخفى أمكنتها • وصفات مواضعها مكتوبة معه • فلم يزل على هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمـــون منه شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبي يعفر صاحب كحلان [2] لأن الصفة وقعت له •

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشـهرهم أبو حامد

---

(١) مفردها أزج بفتحتين ضرب من الأبنية •

(٢) من مخاليف اليمن •

الغزالى ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » . قال ياقوت : وأهل خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدرى لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقـــد خرَّب الطوسىُّ بلدة غزنة
فصبَّ عليه الله مقلوب بلدتهْ
هو الثور قرن الثور فى حِرِ أُمه
ومقلوب اسم الثور فى جـوف لحيتـهْ(١)

وقال دعبل الخزاعى من قصيدة يمدح بها على بن أبى طالب رضى الله عنه ويذكر قبرى على بن موسى والرشيد بطوس :

اربع بطوس على قبر الزكى به
ان كنت تربع من دين على وطرِ
قبران فى طوس : خير الناس كلهم
وقبر شرهم : هـــذا من العـبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا
على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بمـا كسبت
يداه حقاً . فخـذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هى موطن الغزالى . ومولده ، وبهـــا قبره ، الا ان صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا أنه كان لطوس أكثر من ألف قرية . واذاً يكون الغزالى بفتح الزاى لا بتشديدها ، على أن فى طبقـات

---

(١) مقلوب طوس : سوط ، ومقلوب ثور : روث

السبكى ص ٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالى ، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسماً لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة : غزالة •

نيسابور

قال ياقوت : هى مدينة عظيمة • ذات فضائل جسيمة • معدن الفضلاء ومنبع العلماء • لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها الى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس الى مرو الشاهجان[1] ثلاثون فرسخاً • ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُنِىٍّ تجرى تحت الارض ينزل اليها فى سراديب مهيأة لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس فى الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منّا واكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة ارطال بالعراقى ، وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع ، ثم قال:

---

(١) **مرو الشاهجان** ، هى قصبة خراسان وكان بها لعهد ياقوت عشر خزائن موقوفة تحوى نفائس الكتب • منها خزانتان فى الجامع احداهما يقال لها العزيزية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى محمدبن منصور فى مدرسته ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين وخزانة آخرى فى المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتاخرين بها والخزائن الخاتونية فى مدرستها • والضميرية فى خانقاة هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، اكثرها بغير رهن) ويذكر أن اكثر فوائد معجمه من تلك الخزائن • وفى مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب :

أقمرية الوادى التى خان الفها ... من الدهر أحداث آتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فاننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب

ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقى :

أخلاى ان أصبحتم فى دياركم ... فاننى بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرا ... وبين التراقى والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة ... ولكن بقاه فى الحياة عجيب

وكان المسلمون فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمير عبد الله بن كريز فى سنة ٣١ صلحا • وبنى بها جامعاً ، وقيل انها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وانما انتقضت فى أيام عثمان فأرسل اليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية •

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم الحافظ الامام أبو على الحسين بن على النيسابورى ، الذى رحل فى طلب العلم والحديث • وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفى سنة ٣٤٩ •

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور • فمن ذلك قول أبى الحسن الاسترابادى :

لا قدس الله نيسابور من بلد
سوق النفاق بمغناها على ساق

يموت فيها الفتى جوعا وبُرُّهم
والفضل ماشئت من خير وأرزاق

والخير في معدن الغرثى وان برقت
أنواره فى المعانى غير براق

وقال المرادى يذم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغترباً
الا وحبلك موصول بسلطان

أولا فلا أدب يجدى ، ولا حسب
يغنى ، ولا حرمة ترعى لانسان

وقال معن بن زائدة الشيبانى : يشكو ليله بنيسابور :

تمطى بنيسابور ليلى وربما
يرى بجنوب الرى وهو قصير

ليالىَ اذ كل الأحبة حاضرٌ
وما كحضور مَن تحب سرور

فأصبحت امَّا من أحب فنازح
وأما الألى أقليهمُ فحضور

أراعى نجوم الليل حتى كأننى
بأيدى عداةٍ سائرين أسير

لعل الذى لا يجمع الشمل غيره
يدير رحى جمع الهوى فتدور

فتسكن أشجان ونلقى أحبة
ويورق غصن للشباب نضير

وفى نيسابور تلقى الغزالى عن امام الحرمين الفقه والمنطق والأصول حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من تلك ، قيل ان أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب ابن أبى صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين. ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . قال الاصطخرى : أما جرجان فانها أكبر مدينة بنواحيها، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم ، وهى قطعتان احداهما المدينة والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان

وقصب السكر والأترج وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ، ولكن لا ضرر لها .

وقد فتحت فى سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، وخرج منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشد اليهم الرحال .

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول ابن خُرَّيم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها
حنيف ولم يُلْمِمْ بها ساعة غيرُ

ولم يشهد القَس المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها حِبْرُ

أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً
وقد لاحت الشعرى وقد طلع النَّسر

فقلت اصطَبِحْها أو لغيرى فأهدها
فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر

تعففت عنها فى العصور التى مضت
فكيف التصابى بعد ما كمل العمر

اذا المرء وفَّى الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتى حياء ولا سترُ

فدعه ولا تنفس عليه الذى أتى
وان جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فهو ناقص المروءة ... وذكر أن مسلم بن الوليد صريع الغوانى مرض مرض الموت بجرجان ، وأنه رأى نخلة لم يكن فى جرجان غيرها فقال :

ألا يا نخلة بالسَّفح من أكناف جرجان
الا اني واياك بجرجان غـريبان

والى جـرجان رحل الغـزالي ليتلقى العلم عن ابي نصر الاسماعيلي وعلق عنه التعليقة التي حدثتك عما فعل بها العيارون وهـو راجـع الى طوس •

دمشق

لو أنك رجعت الى ياقوت ، وقرأت في معجمه أخبار هذه المدينـة لرايت كيف يضل العرب في بيـــداء الخيال ، ولعرفت ان لهم حظا من اساطير الاولين • وهذا الضلال في ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التي احتلت قبلا رءوس المسلمين : فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن فاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخـرى يقولون انهـــا بنيت على رأس ثلاثة الاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون انه سبعة الاف سنة وحينا يزعمون أن ابراهيم عليه السلام ولد بعـد بنائها بخمس سـنين وحينا اخر يتوهمون ان العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذي بنى دمشق •

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السير ان آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت أنات ، وحواء في بيت لهيا ، وهابيل في مُقرى وكان صاحب غنم ، وقابيل في قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق •

ووجه الغرابة فيه اخلاده الى من يسميهم « أهـل الثقة » وأين وصل أهل الثقة الى أخبار آدم ونوع ، يا أيها المؤرخ الخطير ؟!

وأحب أن أنبه القارئ الى قيمة الاغراق والغلو في وصف البلاد فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وان دل على سـذاجة الواصفين

وأربعة أخماس الناس يشتاقون الى رؤية دمشق حين يقرءون أنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاهم ، وانه كان بها مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وأنه لم توصف الجنة بشيء الا وفيها مثله !!

وكانوا يقولون : (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب ، فقد ذكروا ان الوليد بن عبد الملك بن مروان لما آراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : انا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وان شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فابوا ، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا انا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد الا خنق ، فقال لهم الوليد : فانا اول من يهدمها فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد . قالوا ومكث في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة الاف رجل !! . وقال موسى بن حماد البربري : رايت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفورا فيها سورة (الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) الى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، التي في قوله تعالى : (حتى زرتم المقابر) فسالت عن ذلك فقيل لي: انه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أمها ان تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف المقابر من (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)،ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت. ونقل الجاحظ في كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال : ما يجوز آن يكون أحد أشد شوقا الى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها . ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبى المطاع ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فلى بجنوب الغوطتين شجون

وما ذقت طعم الماء الا استخفنى
الى بَرَدَى والنيربين حنين

وقد كان شكّى فى الفراق يروعنى
فكيف أكون اليوم وهو يقين

فوالله ما فارقتكم قالياً لكم
ولكنّ ما يقضى فسوف يكون

وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
فلست ترى بغير دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبتن وشيا

مكللة فواكههن أبهى الـ
ـمناظر فى مناظرنا وأهيا

فمن تفاحة لم تعد خداً
ومن أترجة لم تعد ثديا

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مطريها بما وعدا

اذا أردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا
ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفاً خضلا
أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعـد جيئته
أو الربيع دنا من بعد ما بعـدا

وقد أغرب الأقدمون فى وصف دمشق ، ومسجد دمشـق ، والذى ذكرته من ذلك كاف لما أنا بصدده من صلة الغزالى بهذه المدينة ، فقد دخلها فى سنة ٤٨٩ وأقام بها أياما قليلة ، ثم عاد اليها بعد ذلك . واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع ، قل السبكى : واتفق أن جلس يوما فى صحن الجامع الأموى وجماعة من المفتين يتمشون فى الصحن واذا بقروى أتاهم مستفتيا ، ولم يردوا عليه جوابا . والغزالى يتأمل . فلما رأى الغزالى أنه ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم ارشاده . دعاه وأجابه . فأخـذ القروى يهزأ به ويقول : المفتـون ما أجابونى . وهـذا فقيرعامى كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظـرونه فلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ وكان الغـزالى اذ ذاك فى زى فقير مجهول ـ فشرح لهم الحال فجاءوا اليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلسا ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام . وحسب القارىء هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطن التى قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان بن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلنى أعطك : قال يارب، أسألك أن تغفر لى ذنبى . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسالك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيرا أن تغنيه . قال لك ذلك . قال واسالك من جاء سقيما أن تشفيه . قال ولك ذلك !! ويروون عن ابى ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الارض اولا ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم اى ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع، فبينما هم كذلك اذ يسمعون صوتاً من الصخرة، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فاذا عيسى بن مريم عليه السلام . فاذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها «عرصة القيامة ، ومنها النشر ، واليها الحشر » ويزعمون أن سليمان كان اتخذ فى بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التى فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فاذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله فى الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود ؟ . وكان أيضا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب فى زاوية من زواياه عصا آبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات ان استقصيتها أمللت القارىء) فياليت شعرى ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

انه لا شك في ان كل ما وصف به بيت المقدس ليس الا صورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الاشياء ، فليست زيارته بمخرجه احدا من ذنوبه، ولا براحمة فقيراً من فقره ، ولا بمنقذة سقيما من سقمه ، كما يزعمون ان الله قال ذلك وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده باربعين سنه ، كما يتوهمون ان النبى قال ذلك ! ولن يا كل المؤمنون اوتار قسيهم من الجوع حين يحاصرهم الدجال في بيت المقدس ، ولن يعود عيسى الى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب ذلك يكون ، فمن يدرينا ان المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القسى والنبال ؟ ولا تنس السلسلة التى علقها فى القبة سيدنا سليمان ، والتى كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليدة الخيال !! وما عسى ان يكون ذلك البيت الذى كان اذا دخله الفاجر ظهر خياله اسود ، واذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبه لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ، ما فيه موضع شبر الا وقد صلى فيه نبى ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون من أن أول شىء حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ فى الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالى يتمدح فى كتابه « المنقذ من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ويتعبد فيها طول النهار !! وأنه انكشفت له فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها كما قال .

هذه المواطن التى قدسها الخيال ، ووضعت فى فضلها الأحاديث ، أثرت تأثيرا بيناً فى حياة الغزالى العقلية ، وطبعت نظره الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا ما رآه فى سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة فى الايجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد .

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذى يهمنا من أعيان العصر الذى عاش فيه الغزالى انما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر لأن فى ذلك تصويرا لحركة العقول اذ ذاك • ونكرر ما قلناه من أن الغرض انما هو أن نقرب للقارىء زمان الغزالى ومكانه ، نوعاً من التقريب • فاما تحديد اتجاهات الفكر فى تلك الآونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالى فى الأخلاق •

الشهرستانى

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ • تلقى العلم فى نيسابور على أبى الحسن على بن أحمد المداينى ، وقد ذكر السبكى بقية أساتذته فى ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته • ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد • قال فى مقدمته : « وبعد فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوى جميع ما تدين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التى عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الايجاز والغموض فى أكثر المواطن

التى تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته فى نصرة مذهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل •

الأبيوردى

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الابيوردى ، تفقه على امام الحرمين، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة ـ وكذلك كان العلماء دائما فى حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما الدين خرافة يسيغها العوام وينكرها الخواص ـ وكان الأبيوردى يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرت له هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع الى همذان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفى مسموما بأصبهان فى ربيع الأول سنة ٥٠٧ •

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله فى الصبر على أحداث الدهر آيات بينات ، ويندر أن نجد أديبا لا يحفظ قوله :

تنكّر لى دهرى ولم يدر أننى
أعِز وأحداث الزمان تهون
فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوق فيها الى أحبابه ، وقد خلاّهم ببغداد •

ألا ليت شعرى هل أرانى بغيضة
أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبه
نسيم كلحظ الغانيات عليل

وعصر رقيــق الطرتين تدرجت
على صفحتيه نضرة وقبــول

وأرض حصـــاها لؤلؤ وترابهــا
تضـــوّع مسكا والمياه شــمول

بها العيش غض والحياة شهية
وليـــلى قصير والهجير أصـيل

فقل لأخلائى ببغداد هل بكم
سلو فعنـــدى رنة وعـــويل

ترنحنى ذكـــراكم فكأنمــــا
تميل بى الصـهباء حيث أميل

لئن قصرت أيام أنسى بقربكم
فليلى على نأى المـزار طويل

الارجانى

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجانى ، ولد حوالى سنة ٤٦٠ هـ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر • وهو من فحول الشعراء وله هذه الأبيات :

سَفَــرت كى تزود الحب منها
نظــرة حين آذنت بالتنـــائى

وأرت أنهــا من الوجـد مثلى
ولهـــا للفراق مثـــل بكائى

فتباكت ودمعهـــا كسقيط الـْـ
طلِّ في الجلّنارة الحمـــراء

فترى الدمعتين في حمـرة اللو
ن ســـواء وما هما بســـواء

خدها يصـــبغ الدموع ودمعى
يصـــبغ الخد قانيـــا بالدماء

خضب الدمع خـــدها باحمرار
كاختضـــاب الزجاج بالصـــهباء

وفي مقدور القارىء أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من نبغوا في القرن الخامس ، فان الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب السبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما نحن فلا نريد أن نطيل •

الباب الثانى

فى حياة الغزالى

تمهيد

نريد أن نتكلم بايجاز عن حياة الغزالى ، لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته فى الأخلاق •

ونحب أن ننبه القارىء الى أن المصدر الموثوق به انما هو كتابه « المنقذ من الضلال » فأما الكتب التى ترجمته فهى فى أكثرها موصومه بالمغالاة ، لأن الغزالى كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوره كرجل لا ينبغى لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لواهمون •

ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة واخلاص عن تطور حالته العقلية ؟ وهى التى تهمنا فى هذا الباب •

الفصـــل الأول

أسرته

ولد الغزالى من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ • وانه ليـكفى أن نعرف شيئا عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد فى أسرته •

أما أبوه فقد نقل السبكى فى طبقات الشافعية « أنه كان فقيرا صالحا لا يأكل الا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهـة ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد فى الاحسان اليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان اذا سـمع كلامهم بكى وتضرع ، وسـأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهـا ، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى • وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤ •

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين ، واعظين ، فان شئت قلت انها دعوة أجيبت ، وان شئت قلت ان حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل الى ولديه بطريق الوراثة •

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية فى عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وانه خرج الى العراق ، ومالت اليـه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثا وثمانين • وذكر ابن خلكان انه كان صاحب كرامات واشارات ، وانه كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه • وينقلون أن قارئا قرأ يوما

وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه فى الأخلاق •

الفصل الثانى

مولده ونشأته

ولد الغزالى فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به فى صباه على احمد بن محمد الراذكانى ؛ ثم سافر الى جرجان حيث تلقى طرفا من العلم على الامام ابى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة — كما كانوا يقولون — ثم رجع الى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه فى جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس امام الحرمين فى المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والاصول فلازمه الى أن توفى فى سنة ٤٧٨هـ • ثم خرج الى العسكر وهى محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك — وكان اذ ذاك فى الثامنة والعشرين من عمره — وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه • فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالى أثمن ما فى خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم، فولاه ذلك الوزير رتبه التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤هـ •

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية الى أن نيف على الخمسين « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد آناف السن على الخمسين• اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل

بين يديه (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)
فقال شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله يا عبادى ثم أنشد :

وهان على اللوم فى جنب حبها
وقول الأعادى انه لخليع

أصم اذا نوديت باسمى واننى
اذا قيل لى يا عبدها لسميع

ويروون أنه حكى يوماً فى مجلس وعظه ان بعض العشاق كان مشغولا بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقا له ، فجاءه يوما بكره وقال له : انظر الى وجهى فانا اليوم أحسن من كل يوم • فقال وكيف ذلك ؟ قال : نظرت فى المرآة فاستحسنت وجهى ، فاردت أن تنظر الى ، فقال بعد أن نظرت الى وجهك قبلى لا تصلح لى • وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء •

ومن كلامه : « من كان فى الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان ينصح اخاه أبا حامد الغزالى بقوله :

اذا صحبت الملوك فالبس
من التوقى أعز ملبس

وادخل اذا ما دخلت أعمى
واخرج اذا ما خرجت أخرس

وكان أساتذتنا فى الازهر يقصون علينا أحسن القصص فى تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الامثال، وقد حاولت أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن أكثر ما عرف عنه انما هو من صنع الخيال •

ولو أننا أضفنا الى ما سلف أن الغزالى كان صغيرا حين مات أبوه ،

ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتـــدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهــارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهـد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبــادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبه لأســـباب جرأته في تعطيله وزندقته • وقد كان التعطش الى ادراك حقــائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري • وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانحسرت عني العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا » •

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون في الدفاع عنها، ويجدون في اذاعتها بين الناس والثــاني أن الغــزالي لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأي واحد : يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضي عليه بان يعلم حقيقة كل نحلة ، وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة •

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان النصــارى ينشأون على التنصر ، وصبيان اليهود على التهــود ، وأطفال المسلمين على الاسلام • وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثاً له على أن يشك في دينــه حتى يتبين حقيقته ــ وان لم يحــدثنا عن ذلك ــ لأنه ما الدليــل على أن النصرانية خير من اليهودية ، أو أن الاسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود : كل على ما هو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات •

وهنا يصرح الغزالى بأنه انتهى الى أنه لا قيمة للتقليد ، لأنه موجود فى كل أمة وفى كل ملة ، وانما القيمة كلها لليقين الذى لو تحدى لاظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك فيه شكا، كماانك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه فى معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة .

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالى لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولا بأن اليقين ينحصر فى الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلا للثقة به ، لأنك تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالى أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التى هى من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما ، واجبا محالا . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل

فكذبني ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء ادراك حاكم العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالى فى مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التى هى بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة اليها كنسبة النوم الى اليقظة ، ثم يتردد فى تعيين هذه الحالة فلا يدرى أهى الموت الذى تنكشف به حقائق الاشياء لقوله تعالى : (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هى حالة الصوفية : اذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى هى لهم أنهم اذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات ؟؟

ثم يذكر الغزالى أنه عاد الى قبول الضروريات العقلية، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله فى صدره كما قال .

ونحن لا ننازع الغزالى فى أن لله نوراً يقذفه فى صدور عباده ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ماهى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذى يعنينا قبل كل شىء : هو أن نسجل أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس فى مدرسة بغداد ، ثم لازمته الى النهاية ، كما ستراه .

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نبين وجهة نظره فى أحكامه الأخلاقية ، ينبغى أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عنى بالتأليف فى الأخلاق • فان معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الإجتماعية ، من أهم ما ينبغى تقديمه قبل الشروع فى درس ماترك المؤلفون •

والسند الصحيح لحياة الغزالى هو كتابه (المنقذ من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته فى عزلته التى دامت نحو عشر سنين ، والتى وضع فى أثنائها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب فى الأخلاق •

قال بعد كلام طويل : « ثم انى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علىّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لى أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات • فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ،

وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا .

« فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن مايمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها ، فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندى أنه لامطمع فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ، وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، ان لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد

على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغـــداد ومفارقة تلك الاحوال يوما واحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخـرى ، لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشـــية ، فصــارت شـــهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقـام ومنــادى الايمــان ينادى : الرحيــل ! الرحيل ! فلم يبق من العمـــر الا القليل • وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العـــلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع ؟؟ !! •

« فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العــريض ، والشــأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما لاتتيسر لك المعاودة • فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر • أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفين الى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعهـا البتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قـــوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف القـــوى ، حتى قطع الأطبــاء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج » •

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه « المنقذ من الضلال » لأن الغزالى عندى صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خـــير للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه في ذلك الحـــين من قوله بعد ما سلف (ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبى الاعـراض عن الجـاه ، والمـال ، والأهـــل والولد والأصحاب) (! ؟)

ويجب أن تتنبه لهذه الكلمة ، فهى كافية فى تصوير نفسه ، وينبغى أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو فى هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغـداد ، ولا كيف عاد الى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذى تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طوال النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ! !

على أنه بعد أن عاد الى أهله (آثر العزلة أيضا حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال .

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها ، واستقصاؤها) وانما يهمنى أن أثبت أنه كتب ما كتب فى الأخلاق وهو على هذه الحال .

ويتلخص ما سلف فى ثلاثة أمور :

الأول ــ ما ورثه عن أبيه من نزعته الصوفية .

الثانى ــ ما استفاده من وصيّه تأييدا لتلك النزعة .

الثالث ــ عشر سنين قضاها فى العزلة ، لها ما لها من الأثر فى تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير فى كتبه .

اذن ليعلم القارىء منذ الآن ان النزعة الغالبة على فهمه للاخلاق انما هى نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا فى عدة مواطن من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

وفاته ورثاؤه

ترك الغزالى بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج فى فى سنة ٤٨٩ هـ ومكث فيها أياما ، ثم توجه الى بيت المقدس فجاور به سنة ٤٨٨ هـ بعد أن أناب أخاه عنه فى المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق مدة ، ثم عاد الى دمشق واعتكف فى المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب الى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوى الرحلة الى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد الى التجول فى الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع الى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الاحياء • ثم عاد الى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وادامة الصلاة والصيام ، الى أن توفى رحمه الله بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ قال السبكى : ومشهده يزار بمقبرة الطابران •

قال الزبيدى : ووجدت فى كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزمورى ما نصه : ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة أن الامام أبا حامد الغزالى لما حضرته الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين ـ كان يخدمه ـ أن يحفر قبره فى موضع بيته ، ويستوصى أهل القرى التى كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور

جنازته وأن لايباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لايعرفون ببلاد العراق ، يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة .. فلما توفى فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج فى أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفا فى كسائه، وفى جانبه علم أسود ، معمما بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفا يقول لهم : ان ذلك الرجل الذى صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه ... الخ » .

وهذه بالطبع خرافة لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالى، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالى لم يمت الا بعد أن اتفق العامة على صلاحه ، فقد رُمى بالزندقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة :

قل لاخــــوان رأونى ميتـــا	فبـــكونى ورثونى حزنا
أعلى الغـائب منـــا حـــزنكم	أم على الحـاضر معكم ههنـا
أتخـــالونى بأنى ميتـــكم	ليس ذاك الميت والله أنـا
أنا فى الصـــدر وهـذا بدنى	كان جسمى وقميصى زمنــــا

وهى طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية. وهى كذلك مما لفقه أصحابه بعد موته ، وما أكثر مازوّر باسمه من الآثار ! !

ونقل ابن الجوزى فى « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد أخى

الغزالى أنه قال : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى ، وقال علىّ بالكفن ، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه ، وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ، ومات قبل الاسفار » .

وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد رثاه الأبيوردى بقوله :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى ... من كل حى عظيم القدر أشرفه

فما لمن يمترى فى الله عبرته ... على أبى حامد لاح يعنفه

تلك الرذيلة تستوهى قوى جلدى ... فالطرف تسهره والدمع تنزفه

فما له خلة فى الزهد منكرة ... وما له شبهة فى العلم تعرفه

مضى ، وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له فى الناس يخلفه

وقال فى رثائه القاضى عبد الملك المعافى :

بكيت بعينَىْ تاكل القلب والـه ... فتى لم يوالِ الحق من لم يوالِه

وسيبت دمعا طالما قد حبسته ... وقلت لجفنى واله ثم واله

***

ونحن — فى جملة من انتفع بمؤلفات الغزالى — نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم فى سبيل العلم والذين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

الباب الثالث

فى المنابع التى استقى منها الغزالى

تمهيـــد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفـــكير فى الانسان وما يتعلق به ، وأنه أول من قال : اعرف نفسك بنفسك . ولعلهم يريدون أنه أول من بحث في الانسان بحثا منظما من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه فى الاجتماع ، على أن يكون ذلك علما ذا قواعــد وأصول .

أما البحث فى أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشيء منهــا نافع ، وشيء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال .

فالأمة العربية التى ورث الغزالى وورث أساتذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر فى تهذيب الأخـــلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الأعراب فى وصية ابنه « المنية ولا الدنية » فيه ضرب من التهذيب الفردى ، وقول أحدهم فى حض الجيش على صدق اللقاء « الطعن فى النحور أكرم من الطعن فى الظهور » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطنا بعينه ، وانما تتبع الرجل فى كل حال .

وكذلك قول أكثم بن صيفى : « العقل راقد ، والهـوى يقظان . والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب الى من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . نفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب.

التقدم قبل التندم • ويل لعالم أمر من جاهله • يتشابه الأمر اذا أقبل ، فاذا أدبر عرفه الكيس والأحمق » • في هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية ، وهي جزء من علم الأخلاق •

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم في معرفة الطبائع البشرية ، فنرى في شعرهم شيئا عن أثر الوراثة ، وأثر الرفقة ، وأثر الجوار ، الى غير ذلك من المعاني التي بسطها الفلاسفة حين تكلموا في الاخلاق • فقول ذي الاصبع العدواني :

كل امرىء صائر يوما لشيمته   وان تخلق أخلاقا الى حين

يماثل بعض المذاهب الأخلاقية •

وقول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم   على سر بعض غير أني جماعها
لكل امرىء شعب من القلب فارغ   وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظلون شتى في البلاد وسرهم   الى صخرة أعيا الرجال انصداعها

يماثل ما يضعه الفلاسفة في الآداب الفردية •

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح في الغالب تصوير للفضائل، والذم تمثيل للرذائل ، ووصف الفضائل والرذائل مما يعنى به علم الأخلاق •

فقول قعنب بن ضمرة :

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا   عني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به   وان ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التي يعنى بحربها علم الأخلاق .

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال

أحتال للمال ان أودى فأجمعه ... ولست للعرض ان أودى بمحتال

هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الانسانية .

ولا تنس الحكم التي فاضت بها النفوس العربية ، فأى كلام أكرم وأمتع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ... ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا

اذا شئت أن تدعى كريما مكرما ... أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا

اذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالا لزلته عذرا

غنى النفس مايكفيك من سد خلة ... فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن ؟

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ، وفيه حل لأكثر المشاكل الاخلاقية التي شقى فى حلها الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ، ومع أبنائه ، ومع اخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفى الحديث توضيح وتتميم لما في الكتاب العزيز ، ويكفى أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول .

وبعد ما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليلة ودمنة، الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابيه الأدب الكبير والأدب

الصغير ، ووضعت أبواب مطولة فى كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما الى ذلك مما يهتم به الناس فى الحرب والسلم ، ويبنى عليه الاجتماع •

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التى أودعها الأدباء والمصلحون آراءهم فى تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع •

كل ما قدمته كان ينبوعا صافيا ينهل منه الغزالى ويعل وهو يضع مؤلفاته فى الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع حكما الا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنى رأيت فى ذلك منافاة للايجاز ، وهو شرط هذا الكتاب •

على أن الغزالى مع ترسمه لما سبقه من الآثار الادبية لم يخل من حرية الفكر، والميل الى التجديد، فقد خرج على الأشعرى فى بعض آرائه، وخالف الشافعية فى بعض ما يقولون به ، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم ــ حين يخالفهم ــ الا برفق واحتياط ، كما يفعل الحذر الهيوب •

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالى الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساويها فى العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا

البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم الا بسوء فى كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد[1] .

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون فى تلامذتهم اثرا غير قليل ، وأثر المتصوفة من اساتذة الغزالى واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية .

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلاسفة حين كتب فى الأخلاق؟ كلا ! وان نظرة فى تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا فى الاخلاق ، والآداب الاجتماعية .

وانك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول فى كتابه « المنقد من الضلال » :

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وانما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء . وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وانما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به ، فأخذه الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل به الى ترويج باطلهم » ص ١٦ .

وقد لحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل اذا وجهت الى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الانبياء

---

(١) انظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ .

والمرسلين ، وقرأوا للصـــوفية كثيرا من الحكم والأمثال ، ولكن هـذه الدعوى قد تظهر باطلة اذا وجهت الى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول فى ذلك :

« ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتـألهين لا يخلى الله تعالى العالم منهم ، فانهم اوتاد الارض ، ببركاتهم تنزل الرحمة الى أهل الأرض » ص ١٧ •

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا ارسطاليس فيما وفقوا اليه ، حين كتبوا فى الأخلاق ، وانما الفضل لاولئك « الاوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منـــذ الاف السنين ولا ادرى ماذا يفعـل الغزالى اذا أقسم الاغارقة بالله جهـــد ايمانهم أنه لم يكن لهم الـه واحد وانما كان لهم ألف الـه والـه ، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل ! !

انه لا شك فى ان الغزالى استقى من المنابع الفلسفية ، فى كل ماكتب عن الاخلاق ، وغاية الأمر أن وجهة الدين ، ووجهة التصوف ، غلبتـــا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة الاولى وكانها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تاخذ منها بنصيب ، وهى فى الواقع متاثرة بما للفلسفة من أصول •

وانه لا حرج علينا فى أن نقرر ان الغزالى أصلى الفلسفة نارالعقوق فقد كانت سبب حصافته ، وذيوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالامر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة هـذه التقاليد الممقوتة التى يعانيهـا المفكرون الاحرار ، فى جميع الأقطار الاسلامية ، منذ حين !

٣ ـ اخوان الصفا

جمعية شبه سرية • اجتمعت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع •

وانما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة اذ ذاك • وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التى يرونها صحيحة فى جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون : « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لانها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد الفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم ـ وقالوا فى أول هذه الرسائل : « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغه الى لغه من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها • ونحن قد اخذنا لب معانيها ، واقصى اغراضهم فيها ، واوردناها باوجز ما يمكن من الالفاظ فى احدى وخمسين رسالة » •

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجىء فيها أحيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعه الموت على كثير من نسخ رسائل اخوان الصفا [1] •

وذكر الأستاذ الكونت دى جلارزا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « ان الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة » •

ورسائل اخوان الصفا تحتاج الى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية • ويكفى أن يعرف القارىء أن الغزالى اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٢٥ •

لصاحبه ، بل صرح الغزالى بأنه أقبل فى أول حياته العلميـــة على درس ما عرف لعهده من المذاهب والآراء •

الفارابى

هو أبو نصر محمد بن طرخان • وهو فارسى من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان ـ جاء الى بغداد • وأخذ علم المنطق عن أبى بشر متّى ابن يونان النصرانى الذى توفى سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينــة حران وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك الى بغداد ، ثم رحل الى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان •

قال سلطان (بك) محمد فى محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها ، واحسنوا فهمها ، يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهى منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ، فسئمته نفسه • وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا • فلما علم أنه فى الفلسفة الالهيـــة ، قال لا حاجة لى به • فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب به ثمنا قليلا • وأبيعكه بثلاثة دراهم • قال فاخذته ووجدته تأليف أبى نصر الفارابى ، فلمـــا قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه » •

وكان معشوق الفارابى من فلاسفة اليــونان أرسطو ، حتى قيل انه وجد كتاب النفس لارسـطو وعليه بخط الفــارابى : « انى قرات هــذا الكتاب مائة مرة » ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثانى كما لقب أرسطو بالمعلم الأول • وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته

لكنت أكبر تلاميذه ، وتوفى الفارابى رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين .

وللفارابى آثار كثيرة عدا عليها الفناء ؛ ومن مؤلفاته الباقيه « اراء أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكى فيه جمهوريه افلاطون .

وقد انتفع الغزالى بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفه وبلا دليل .

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا اشهر فلاسفه المسلمين ، توفى سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة . وكان من امهر الاطباء وكتابه « القانون » كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عنى العرب ببسط ارائه الفلسفية ، وبشرح ما دون فى الاخلاق ، وطبائع النفوس .

ولا ريب فى أن الغزالى انتفع بمصنفاته ، وان جازاه جزاء سنمار حيث حكم بكفره ، مجاراة للعامة ، وطاعة للهوى . « وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون » .

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالى بآرائهم فى الاخلاق ابن مسكويه: أبو على أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ . وهو من فلاسفة المسلمين وله عدة كتب فى الاخلاق ، أشهرها كتابه المسمى : « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » ، وهو يقع فى ١٨٥ صفحة ، ويقول فى مقدمته : (غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمى ، والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هى

واى شيء هى ، ولاى شيء اوجدت فينـــا ، وما قواها وملكاتها التى اذا استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية ... الخ) .

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلسفه اليــونانيه بطريقه صريحه ؛ لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفه اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الاسلامية ، وكتابه الذى نوهنا عنه ذو أثر كبير فى تلوين الغزالى من الوجهه العقليه وقد هممت بوضع مقارنه بين كتابه ذاك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رايت ان هذا باب اذا اطلته طال ، واستنفد وقتا انا محتاج اليه فى غيره من الابواب فلا اكتف ببعض فقـرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلا يشبه ان يكون حرفيا ، من غير ان ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما ادرى االان ذلك مقصودا او غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على تاثر الغزالى بمؤلفات ابن مســكويه ، والى القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه : (ومن انخدع عن هذه الموهبه السرمديه الشريفه بتلك الخساسات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) .

ويقول الغزالى : (ومن انفك عن هذه الجمـــله كلها ، واتصف باضدادها ، استحق ان يخرج من بين البلاد والعباد) .

(٢) يقول ابن مسكويه : (ان اول ما ينبغى ان يتفرس فى الطفـل ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على انه قد احس بالقبيح ، ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبى فوجدته مستحيا مطرقا بطرفه الى الارض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدق اليك ، فهو اول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح ، وهــذه النفس مستعدة للتاديب ، صالحة للعناية ، لا يجب ان تهمل ولا تترك) .

ويقول الغزالى : (ومهما رأى فيه مخايل التميز . فينبغى أن يحسن

مراقبته ، وأول ذلك ظهورا أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الافعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الاشياء قبيحا ومخالفا للبعض ، فصار يستحي من شيء دون شيء والصبى المستحيي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه)

(٣) يقول ابن مسكويه : (ان نفس الصبى ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها راى ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء) ٠

ويقول الغزالى : (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة) ٠

(٤) يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتى يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول ٠ وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتي يتربى على ذلك ٠ ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه) ٠

ويقول الغزالى : (ويحبب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده ان ذلك شان النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه) ٠

(٥) يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه ٠ ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره أو يلاعبه ٠ وذلك أن الصبى فى ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال٠ اما كلها واما أكثرها ٠ فانه يكون كذوبا ٠ ويخبر ويحكى ما لم يسمعه ولم يره ٠ ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا ذا فضول) ٠

ويقول الغزالى : (ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية، فان الصبى مهما أهمل خرج فى الأغلب رديء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نموما لجوجا ذا فضول) ٠

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالى أدق ، لأنها تعلق فساد الطفل على اهمال تربيته وتأديبه •

(٦) يقول ابن مسكويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالادب • ويحذر النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها انه ضرب من الطرف ورقه الطبع • فان هذا الباب مفسدة للاخلاق) •

ويقول الغزالى : (ثم يشتغل فى المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار ، وحكايات الابرار ، ويحفـظ من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقه الطبع ، فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذور الفساد) •

ولئن قال قائل ان هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالا للنقل والمحاكاة ، فانى أجيبه بأن موافقة الغزالى لابن مسكويه فى بعض الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله ، وأن نصيبه من الابداع قليل •

الفصل الثانى
منبع التصوف

وما زال الغزالى يكرع من مناهل الصـوفية حتى روى ؛ ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح فى كتاب الميزان ، والأربعين ، والاحياء ، بحدبه على الصوفية ، ورفقـه بهم ، واشفافه عليهم • بل اظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم اخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره !!

وانظر قوله فى منهاج العابدين :

« وأن اللمعة التى تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبى ، ومحمد بن ادريس الشافعى ، والمزنى ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين ـ رحمهم الله أجمعين • فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام الا تعففا　　وما وجدوا من حب سيدهم بدّا

أفاضل صدّيقون أهل ولاية　　الى سيد السادات قد جعلوا القصدا

تحلل عقد الصبر من كل صابر　　وما حلت الأيام من عقدهم عقدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا رجالا ، وليتنا لا ننقطع عن الطريق • والله المستعان على المصائب ، وهو المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ص ٩٦ و ٩٧

فهل رأيت تحرقا أمر من هذا وألذع ؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذى يترسم الغزالى آثار أصحابه ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول •

ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة الى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره الى روح الاسلام ، أما

ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعد معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فانه يلبس أصحابه أرواح العبيد .

أنفاس الصوفية

وانك لترى الغزالى يحاكى الصوفية فى أنفاسهم وخطرات قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ، واظهر مايكون هذا فى ذم الأتقياء المزيفين ، وسترى أنه فى كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوصـ ـل وفاز الأحباب بالأحباب

وبقينا مذبذبين حيارى بين حد الوصال والاجتناب

نرتجى القرب بالبعاد وهذا نفس حال المحال للالباب

فاسقنا منك شربة تذهب الغم وتهدى الى طريق الصواب

يا طبيب السقام يا مرهم الجر ح ويا منقذى من الأوصاب

لست أدرى بما أداوى سقامى وبماذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ، ويسكت عنها لا يقيدها بشىء . وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم ياته الا من جهه استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد .

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحا ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه فى بيداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر الزبيدى وغيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على أن حاكى ما فى قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء فى طرائق السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التى تاثر بها الغزالى من بين كتب الصوفية كتاب «قوت القلوب ، فى معاملة المحبوب » تاليف ابى طالب المكى المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ولا يوجد الان فى الاسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ، يقع الاول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧ .

ويعد هذا الكتاب ــ بحق ــ مصدرا لكتاب الاحياء ويكفى ان تقرأ باب التوكل مثلا فى الكتابين لنعرف انهما يسيران فى طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالبا فى الشواهد من الايات ، والأحاديث ، والاخبار . ويمكن الجزم بان الغزالى اودع كتاب الاحياء كل ما صح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فاذا قال ابو طالب المكى : (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذا بيت) قال هو : (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) . وربما وضع عنوانا لمسالة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسالة تحت عنوان ، فياتى الغزالى ويدمجها فى كلامه ، فيخيل الى القارىء أنها له ، ولولا خشية الاطاله لضربنا لذلك الأمثال .

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن أبى الحسن الشاذلى أنه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد الاسهاب والتفصيل فى الأحياء ، وتجد الدقة وروعة الاخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه يغرب فى التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل .

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ • وهى تقع فى ١٨٦ صفحة • ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ويسمى هذا الشرح : « احكام الدلالة فى شرح الرسالة » •

وقد كتب القشيرى رسالته هـذه : (الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال فى المقدمة فهى اذن منشور عام لاصلاح المتصوفة فى ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للغزالى من منهاج العابدين ، فهو يقول : « اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانهـا كخيامهم ... وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هـذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة ••• الخ) •

وقد شرح القشيرى فى بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الاصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بايجاز ، ثم فسر الألفاظ التى تدور بين هـذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، الى آخر ما قال •

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما الى ذلك مما يهم السالكين •

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق •

وقد صدق الزبيدى فيما رآه من أن الغزالى اعتمد عليهـا عند تأليف الاحياء • وان كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل أن يثبت الانسان اثر هـذه الرسالة فى أكثر أبواب الاحيـاء ، وما أدرى لم لم يشد الغـزالى بذكر مؤلفهـا ومؤلف قوت القلوب ، مع أن فضلهما عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالى من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالى ونريد بذلك من قرأ لهم ، واستشهد بكلامهم فى مؤلفاته ، لان تأثيرهم غـير قليل فى تكييف أحكامه الأخـلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصـوفى المعروف •

الامام الشافعى

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها أربع سنين • وكان سنه حين مات ٥٤ سنة • وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالا غير هذا المجال ، غير أنه لايفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب « الأم » الذى ينسب اليه ليس له ، وانما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالى فى الاحياء •

والذى يهمنا الآن : هو أن نصور الشافعى كما تصوره الغزالى ، أى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ، ونسيان

الذات ، حتى ليقول : (وددت لو أن الخلق تعلموا هـذا العلم على أن لا ينسب الىّ منه حرف) •

نماذج من كلامه

والى القارىء نماذج من كلماته التى جرت مجرى الامثال • قال رضى الله عنه : « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعـرفه ـ المراء فى العـلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن ـ من لم تعزه التقوى فلا عزّ له ـ سياسـة الناس اشد من سياسة الدواب ـ لو علمت ان الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته ـ ليس باخيك من احتجت الى مداراته ـ من علامه الصادق فى أخوة أخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله ـ لا تشاور من ليس فى بيته دقيق ـ لا تقصر فى حق اخيـك اعتمادا على مروءته ، ولا تبذل وجهك الى من يهون عليه ردك ـ من نمّ لك نمّ عليك ـ من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » •

المزنى

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى • ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢٦٤ هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشرى مذهبه • وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لغلبه) ! ! ونقل السبكى عن عمرو بن عثمان المكى : (ما رأيت احدا من المتعبدين فى كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادا من المزنى ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت أحدا أشد تعظيما للعلم واهله منه ، وكان من اشـد الناس تضييقا على نفسه فى الورع ، وأوسعهم فى ذلك على الناس) •

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سـنة ١٦٦ هـ ،

وتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواة حكمه • قال السبكى : (وقد ينفرد حرملة فى بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفريعا ، كما قد يفعل ذلك المزنى وغيره فى بعض الأحايين) •

المحاسبى

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبى المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقول أنه سمى المحاسبى لكثرة محاسبته لنفسه وقد ألف فى الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتى كتاب • وكان الجنيد يقول : « كنت كثيرا ما أقول للحرث : (عزلتى أنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنسا ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عنى ، ما استوحشت لبعدهم • وأنشد منشد بين يدى الحرث هذه الأبيات :

أنا فى الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجبا لى ولتركى وطنا فيه حبيبى

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره •

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم ـ حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام ـ الظالم نادم وان مدحه الناس والمظلوم سالم وان ذمه الناس ـ القانع غنى وان جاع ، والحريص فقير وان ملك » •

الجنيد

هو فى نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الاطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل •

ومن كلامه : « ان الله يتخلص الى القلوب من برّه ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكره • فانظر ماذا خالط قلبك ـ الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ـ اذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم ، وابدأه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » •

* * *

وفي كتب الغزالي عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وانه لا شك في انتفاعه بتلك الآثار • والرغبة في الايجاز هي التي أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل •

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التي استقى منها الغزالي هو منبع الشريعة ، ممثلة في الآيات والاحاديث والاخبار • ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الاسلامية ، وهذا رأي غير صواب، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من اكثاره فيمؤلفاته من الآيات والأحاديث، وسترى كيف أخطئوا حين تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق •

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالي بآرائهم في المعاملات • مع أنه احتاط في النقل عنهم ، ولكن هذه الحيطة لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف •

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

الانجيل

أطلع الغزالى على الانجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ما شاء فى مؤلفاته • وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق بين أحد من الأنبياء •

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع • لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى الى مطالعته للانجيـــل ، مع ان الغزالى لم يضل الا حــــين تعلق باهداب الاداب السلبية التى دعا اليهـا الانجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التى وضعها الانجيل غير طبيعية ، على معنى انه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من الناس • فالحكمة الانجيلية التى تقول : من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر• حكمة غير معقوله ، لا يقرها عرف ، ولا يدعو اليها قانون ـ والحـكمة المسيحية التى تقول : من سخرك ميلا فامش معه ميلين • حكمة غـير ممكنة القبول • ومن المستحيل أن تجد مسيحيا يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خده الايسر ، اما المسيحى الذى يتبعك ميلين حين تســـخره ميلا فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف مالاحظه الدكتور زويمر على ما رواه الغـزالى عن المسيح من أنه مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل • فقد قال : الحقيقة أنها أربعون • ولِم تتعب نفسك يا سيدى الدكتور فى هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال فى خيال ، لأن الذى يمكث ستين يوما أو أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشىء فى هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد • وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالى فى الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين

سنة ؛ ولم يأخذ معه في كل سياحاته الا كوزا وسبحة ومشطا • ورأى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانيا ، وكان يقول دائما : حصاني قدماي ، وبيوتي مغائر الأرض ، وطعامي خضرتها ، وشرابي من ماء أنهارها ، ومقري بين بني آدم » •

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما روى من أن عيسى لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، الا أن تكون هذه أيضا معجزة ، وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات ! !

ان عيسى الذي يصورونه بهذه الصورة شخص خرافي لم يعرفه التاريخ • والا فأي أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يعرّض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من أنه قال : « اذا كان صوم أحدكم فيلدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم » فان في هذا الحديث دعوة الى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنبا للتمدح بمظهر الصيام •

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من أخذ رداءك فأعطه ازارك ، ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب !؟

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد • مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » • ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير

لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم ، فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق • وهذا يناقض الآية الكريمة « ولا تنس نصيبك من الدنيا » • ومن الواضح أن الذى لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجد فى طلبه •

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام ، وانما نرجح ان اتباعه جنوا على شريعته ، بما زوروا باسمه من الاحاديث ، وهـــذه جناية كثيرة الامثـــال فى الشرائع ، فان الاسلام مع تواتر سنده الاول وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا الأحاديث باسم النبى حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال •

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد ، فان الدعوة الى الزهد أصل من أصولها الأولى • ولكنا نرجح أنها كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفل من حدة النـاس وتقلل من جشعهم وطمعهم • فاما الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله فهى دعوة بعيـــدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين •

وكنا نحب أن لا يصدق الغـزالى كل ما نقل عن المسيح ، ولـكن الغزالى كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء الى الاعتصام بحبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين •

الفصل الخامس

أساتذة الغزالى وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالى للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لا نجد بدأ من التنبيه الى أنه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده أساتذته وأصحابه • وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالى لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية •

فمن أساتذته الامام أحمد بن محمد الراذكانى ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس •

ومن أساتذته الامام أبو نصر الاسماعيلى ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى، وقد تلقى عنه الغزالى فىجرجان ، وعلق عنه التعليقة، كما كانوا يقولون •

ومن أساتذته امام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالى فى نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالى ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ •

ومن أساتذته الامام الزاهد أبو على الفارمذى من أعيان تلامذة أبى القاسم القشيرى وكان أستاذه فى التصوف ، وقد عده السبكى من أصحابه •

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالى وأصحابه أثروا فى حياته العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره الى الحياة بطابع خاص ، وفى مقدور القارىء أن يرجع الى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم فى طبقات الشافعية • أما تلامذة الغزالى فسنعود اليهم فى غير هذا الباب •

الباب الرابع

فى مؤلفات الغزالى

تمهيد

تكلم ابن السبكى فى طبقاته عن مؤلفات الغزالى ، وتبعه الزبيدى فى شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان فى صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالى ، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثانى الاشارة الى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت او مطبوعة . الا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر مانوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم فى المكاتب والأسواق .

وأهم كتب الغزالى فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، « كتاب الاحياء » ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب « ميزان العمل » وهو يقع فى ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل فى دقته كتاب الاحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه « معيار العلم » . وقد قال فى مقدمته : (لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لا تنال الا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، وجب معرفة العمل المسعد ، والتميز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه .. الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف .

ويلى هذين الكتابين فى الأهمية كتاب « الاربعين » • وهو جزء من كتاب « جواهر القرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الاحياء ، وهو قريب منه فى الموضوعات وفى التبويب •

ومن مؤلفاته الهامة فى الاخلاق كتاب «منهاج العابدين» وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة • ونقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وانما هو لأبى الحسن على ابن خليل السبتى ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالى من التآليف •

وهناك « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، كتبه للسلطان محمد ابن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالى فى آداب الكتاب وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء • وسترى بعد ، كلمه فى نسبة هذا الكتاب الى الغزالى، وهو يقع فى١٢٤ صفحة وتجده مشحونا بالاقاصيص، وهى فكرة حسنة فى الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه •

ولا تنس كتابه « المنقذ من الضلال » ، ففيه صورة صادقه لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهه نظره فيما شهده من الحركة العلمية فى عصره ذاك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص •

وكتابه « المستصفى فى الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء •

ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه فى منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع فى شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الى آخر الآية •

ويعد الغزالى من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها جميعا كما قدمنا هو كتاب الاحياء وهو سبب ما رزق من الخلود •

الفصـــل الأول
طريقته فى التأليف

وللغزالى فى التاليف منهج جميل ، فهو يشرح أولا المذهب الذى يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتابا فى مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتـاب فى تهافتهم ، ويقـول فى كتابه ذاك (ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملا مرســلا ، من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى اذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً فى كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة) •

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر فى «المنقذ من الضلال » ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض أهـل الحق أنكر عليــه مبالغته فى تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وترتيبه اياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم الى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف ان كررنا أنه جميل •

ومما تمتاز به خطة الغزالى فى التأليف ، الاعتماد على الخطابيـات فى اصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد فى حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث، ثم الأخبار ، ثم الآثار • وينطلق بعد ذلك فى ذكر القصص والحـكايات التى تستولى على قلب القـارىء ، وترسم فى نفســه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود • والأمر كذلك اذا تكلم عن رذيلة من الرذائل،

وهو فى هذا الباب لا يعتبر مبتكرا ، فقد سبقه القُصّاص ، ولكنه آخر عفى على الاولين ؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس ؛ ويكفى أن تقرأ كتب سميلز الانجليزى المتوفى فى ١٦ أبريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج فى رأى المعاصرين ، فانى لم أر أحدا يستنكر منهج سميلز فى الآثار من الاقاصيص للترغيب فى مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتب الغزالى الاخلاقية بأنها صالحة لكل قارىء ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، او فريق خاص ، وانما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالى : وهى اقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة ، تخلب العقول، وتمتع القلوب. وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره انه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم : اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد الى الاصبع ، ومنها الى اليد، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التى يتوقف انبعاث الارادة عليها ، ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة[1] .

ويشبّه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلفه ، والدجاج فى قفصه يرمق ما تعوّد من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الامور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمرا شريفا [2] .

والذى يعبر بنظره كتاب الاحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب ، وهو يجيد فى التخييل حتى يغلب القارىء على أمره ، ويشككه فى نفسه ،

---

(١) ٢٧٩ الاربعين .
(٢) ٧٦ منهاج .

ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر فى مؤلفات الغزالى ، اذ كانت فى الأغلب وساوس صوفية غُشّيت بألوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها الا العالمون والأقوياء •

الفصل الثانى

الصوت المردد فى مؤلفات الغــزالى

ومع محاكاة الغزالى لمن تقـدمه من المؤلفين ، فانا نراه يكرر كثـيرا الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، فى جميـع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بان الاحياء ، والاربعين ، والميزان ، والمنهـاج ، والتبر المسبوك ، والأدب فى الدين ، وبداية الهداية ، وجزءا كبيرا من مؤلفاته فى الفقه والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بان جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية • ولو أننا وازنا بين كتبـه فى باب كباب الاخلاص لوجـدنا الأمثلة واحـدة ، والعبارات واحـدة ، وانما تختلف بالاطناب والايجاز •

واذ كان الرجل مفتونا بآراء الصوفية • فانا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظـروف ، فهو فى المنهـاج ، أقرب اليهم منه فى الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك •

ونلاحظ أنه ليست هنـــاك غاية موحـدة يسعى لنصرتهـا الغزالى بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكنـاف الشريعة ، فيمنع ما تمنـع ويبيح ما تبيح • وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهـو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص !

وينتج مما سلف أن الغزالى ليس من المبتكرين المبدعين ، وانمـا

يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذى أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالى ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء فى يمناه ، وما زالوا به يحلمون •

الفصل الثالث

كتاب الاحيــاء

هو أهم ما كتب الغزالى فى الأخلاق ، ألفه فى أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط •

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهـارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات •

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب الســفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعــروف والنهى عن المنــكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة •

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ،

وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجـــاه والرياء ، وكتاب ذم الـكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور •

وربع المنجيات: ويشتمل على كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخـــوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهـــد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبـــة والشوق والأنس والرضـــا ، وكتاب النية والصدق والاخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت •

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالى بكتاب الاحياء ، وليس كثيرا أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالى فى الأخـــلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى الغزالى نفسه فى ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه فى شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات : « ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتبا ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول ــ حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه •

الثانى ــ ترتيب ما بددوه ، ونظم مافرقوه •

الثالث ــ ايجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه •

الرابع ــ حذف ما كرروه ، واثبات ما حرروه •

الخامس ــ تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه » •

الفصل الرابع

أغلاط الأحياء

نذكر هنا شيئا من المآخذ التى آخذها المتقدمون على الغزالى فيما يخص كتاب الاحياء • لان فى ذلك بيانا لقيمة هذا الكتاب فى نظر المتقدمين ، ولان فيه تمهيدا لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالى فى الاخلاق •

١ – نقل السبكى فى طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المأزرى قال وقد سئل عن الاحياء : « ان الغزالى يستحسن اشياء مبناها على ما لا حقيقة له ، مثل قوله فى قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة » !

٢ – وأنكروا عليه كما نقل الزبيدى ، قوله فى الاحياء : ليس فى الامكان أبدع مما كان ، واستندوا فى انكارهم الى أن هذا يوهم عجز الجناب الالهى ، وهو كفر صريح ، وانما انحصر انكارهم فى هده الوجهة لاغراقها فى المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة فى سبيل الاختراع •

٣ – ونقل الزبيدى عن الأجوبة المرضية للشعرانى أن مما أنكر على الغزالى قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وقد اجاب الزبيدى على هذا بجواب مضحك جاء فيه : (وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وامتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها فى بحر لكان له ذلك بطريق الاجتهاد ، ولا لوم الا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله اسرافا وسفهاً) وقد فات الزبيدى أن غرض المنكر ليس منصباً على

التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فانه لا مرية في أن غرض الشرع من التجمل انما يرجع الى الرغبة في أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال .

٤ ـ ومما أنكروا عليه قوله في الاحياء : المقصود بالرياضة تفريغ القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس في مكان مظلم ، فان لم يكن مظلما لف راسه في جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فانه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية (!؟) .

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون ! فمن يدرينا ان ما يسمعه المتريض هو نداء الحق ، أو أن الذى يشاهدوه هو جلال الربوبية ، ومن يضمن ان لا يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة !

٥ ـ وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الاولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ ـ وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع في برية ليمتحن توكله على الله هل صح ام لا (!؟) قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لاسباب الهلاك ؟

٧ ـ ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ في بدايته يكسل عن قيام الليل ، فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختيارا ، وكذلك عالج بعضهم حب المال فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها في البحر خوفا من أن يقع في حب تزكية الناس له ، ووصفه بالجود ، او الرياء في فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستاجر من يشتمه على رءوس الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان

بعضهم اذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لايأخذه النوم (:)
قال ابن القيم : وانى لا تعجب من ابى حامد هذا كيف يامر بهذه الامور التى تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لاحد ان يقوم على راسه طول الليل ، وكيف يحل رمى المال فى البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم ان يستاجر من يشتمه ، وهل يجوز لاحد ان يقوم على راس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت ؟!!

٨ ـ ومما انكروا عليه حكايته عن ابن الكريتى شيخ الجنيد انه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فتشت قلبى ، ونفر منى ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها، وخرجت فجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى واخذوا منى الثياب ، وصفعونى وسمونى لص الحمام ، فسكنت نفسى (:!) قال الغزالى : فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ، واهل النظر الى النفس وارباب الاحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، اذا رأوا صلاح قلوبهم فى ذلك ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام (!!)
قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقة بتصنيفه كتاب الأحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الامور التى لا يحل لاحد السكوت عليها ؟ ثم نقل نص الامام أحمد والشافعى فى ان من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده • ثم قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى أستلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبى من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات •

٩ ـ وأنكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ! قال ابن القيم :

وهذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الاذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الارض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس ابليس • فان مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب •

١٠ ـ وأنكروا عليه تقريره عن أبى الخير الأقطع التيتانى قوله : انى عقدت مع الله عهدا ان لا آكل شيئا من الشهوات ، فمددت يدى الى تمرة فى شجرة فقطعتها ، فبينما أنا امضغها اذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فدار بى فرسان وقالوا قم ! وأخرجونى الى ساحل بحر اسكندريه ، واذا امير وحوله خيل وجند ، فقالوا انت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه، فكذبهم الأمير وشرع يقدم يدا ويقطعها الى ان وصل الى ، وقال لى : تقدم ومد يدك ، فمددتها فقطعت الى آخرها !! قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتانى رائحة علم ، لعلم أن ما فعله حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء الا من الجنون •

١١ ـ وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه • وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة الا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأكمام •

١٢ ـ وأنكروا عليه حكايته عن أبى تراب النخشبى أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (!؟) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات •

١٣ ـ وأنكروا عليه تقريره لرمى الشبلى ما كان معه من الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد الا أذله الله تعالى • قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبى حامد أكثر من تعجبى من هؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على وجه الانكار ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبى حامد حتى يكتب عنه شىء من العلم ؟ فان الفقهاء كلهم يقولون ان رمى المال فى البحر لا يجوز •

١٤ ـ وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الدارانى : اذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر فى طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن الى الدنيا (!؟) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة • وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : « ان الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم » ؟ وكيف لا يطلب المعاش • وقد قال عمر رضى الله عنه : « لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب الى من أن أموت غازياً فى سبيل الله ؟ » وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : « تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة ؟»

١٥ ـ وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادى : انى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زادا تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتاج الى شرطين: أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه • الثانى أن يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهى الى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته • قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فانه قد لا يلقى أحدا • وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد •

١٦ ـ وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية

بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله ــ قيل له فان مات؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هده فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لاحد دخول الباديه بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة فى الآخرة •

١٧ ــ وأنكروا عليه أيضا ما حكاه عن شقيق البلخى أنه رأى مع شخص رغيفا ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفا الى الليل !

١٨ ــ وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف انما هو الى تحصيل العلوم اللدنية ، دون العلوم النقليه، ولذلك لم يحضوا على دراسه العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط)!؟)

١٩ ــ وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام » • فقد قال : الاصنام الذهب والفضة • وعبادتهما حبهما والاغترار بهما • وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد •

٢٠ ــ وأنكروا عليه أيضا تقريره قول سهل التسترى : ان للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وان للنبوة سرا لو ظهر لبطل العلم ، وان للعلماء بالله سرا لو ظهر لبطلت الاحكام والشرائع (!؟)

وأنا أكتفى بهذا القدر من أغلاط الاحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء فى ذلك الكتاب ، وسترى فى باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفه لم تخمد بموت الغزالى ، بل ظلت ثائرة عدة أجيال • وما عجبت لشىء عجبى للزبيدى ، فقد تولى تفنيد هذه المآخذ ، واحدا واحدا ، وهو نعسف ممقوت ، يكفى أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وانما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء•

ومن أراد التحقق من صحة هـذا الحكم فليرجع الى الجـزء الأول من شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص٤٠ •

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكى عن الغزالى فى قص الأظفار فقد قال : وأما ما ذكروه فى قص الاظفر فالأمر المشار اليه يروى عن على كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس فى ذلك كبـــير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقـــراء يذكرون أنهم جـربوه فوجدوه لا يخطىء • ومن داوم عليه أمن من وجع العين • ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :

ابدأ بيمنـــاك وبالخنصر   فى قص أظفارك واستبصر
واختم بســـبّابتها هكذا   فافعله فى الرجـل ولا تمتر
وابدأ ليسراك بابهامهـــا   والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويتبع الخنصر ســـبابة   بنصرها خاتمـــة الأيسر
هذا أمان لك قد حزته   من رمد العين كما قد قـرى

والسخف ظاهر كل الظهور فى هذا الجواب ، والا فما هى الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع العين ؟ وكيف قال على بن أبى طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس ؟

الواقع أن الغزالى كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد نسى العلماء فى الدفاع عنه أن هناك عقلا يجب أن يحكم ، وأنه لن يخـلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس
غفلة الغزالى وعناده

- ١ -

أما غفلته فدليلها بما فى كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وهى تقرب من ستمائة حديث •

وأنا لا أشك فى نزاهة الغزالى وبعده من الكذب على رسول الله ، فمحال على مثله فى ورعه وتقواه أن يزور على النبى حديثا ، أو يضع فى كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات • وحقيقة الأمر أن الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، والا فكيف صدق أن النبى يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » • وأقل الناس علما بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال : « ان الله يقرئك السلام • ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟ » •

ومالى أطيل فى نقد ما جاء فى الاحياء مما لا اسناد له من الأحاديث وهى مسطورة فى طبقات الشافعية ، فى ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع • والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل •

- ٢ -

وأما عناده فدليله اصراره على ابقاء ما جاء فى كتبه من الأغلاط ورميه ناقديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل نقدهم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين السمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق •

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه فى الانكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم فصنف كتابا سماه : « الاملاء فى اشكالات الاحياء » • وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو فى أيدى الناس ، وانما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فان فى هذا صورة لجانب من جوانبه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وايمانه بصحة ما جاء فى الاحياء ، وعدم اكترائه بآراء الناس •

قال : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه • وقصر علمه • ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الاسلام ، حتى طعنوا عليه • ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم ومآبهم • وعليه فى العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » • بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم • ولكن الظالمون فى شقاق بعيد • ولا عجب فقد ثوى[1] أدلاء الطريق وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق فى الغالب الا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء • قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر • وتآلفوا جميعا على الفعل المنكر • وعدمت النصائح منهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء أغروا بهم ، وان صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية • لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء

(١) هلك •

وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق • وعلموا علم أهل الباطن) ••• الى آخر ما قال •

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالى يصر بعد أن نقده معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية • ويمكننا أن نتوقع ما سيجيب به فى كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرج كل ما نقلناه فى آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ولنرجع اسرافه فى بعض المواطن الى هذا الأصل الذى اختاره وارتضاه وهو التصوف والا فمن هم النقباء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، ان لم يكونوا جماعة من المتصوفة الذين يستبيحون ما لا يباح ؟!

ومن أظرف ما أجاب به الغزالى فيما أخذ عليه من الأغلاط النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! ويا ليته نصح بمثل هذا فى اصلاح ما ضل فيه من الأحكام :

الكذب على الغزالى

ومما يجب التنبه له أن الغزالى لم يسلم من الكذب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون • ويذكر الزبيدى من هذه الكتب : (السر المكتوم فى أسرار النجوم) وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضا الى الفخر الرازى ، وأنه سئل عنه فأنكره • ومما دس على الغزالى كتاب : تحسين الظنون ، وكتاب النفخ والتسوية ، وكتاب المضنون به على غير أهله • قال السبكى : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب اليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له • وبين سبب كونه مختلقاً موضوعا عليه • قال الزبيدى : والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالى قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العنانى فى محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون « المضنون به على غير أهله » هو ما بأيدى الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذى قصده الغزالى من « المضنون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العنانى أن يكون « المضنون به على غير أهله » كتابا ضخما يشمل آراء الغزالى الفلسفية التى يضن بنشرها على الجمهور •

وعندى أن رأى الدكتور العنانى صواب لأمرين: الأول أن الغزالى كان ينصح دائما بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما فى كتاب الاحياء وأمثال كتاب الاحياء الثانى ما ذكره الزبيدى من أن كتاب « المضنون به على غير أهله » يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فان هذه المسائل لا توجد فى النسخة التى يتداولها الناس •

وقد رجح جرجى زيدان فى فهرس تاريخ « الآداب العربية » أن كتاب : « التبر المسبوك » مدسوس على الغزالى ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده • أما ما يقربه فهو اسقاط اسم من ترجمه من الفارسية • وظهور الكتاب بمظهر الضعف فى كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالى الأخلاقية ، واحالته على الاحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب الا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التى توهم القارىء أن لا وضع ولا اختلاق • ومما لا مرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالى ، فأما عددها فلا يزال مظنة الارتياب •

ولا يفوتنا فى ختام هـذا الباب أن نذكر القارىء بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالى فى كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته • فقد وضع مؤلفاته فى ظـروف مختلفة ، كان فى بعضها يحكم العقـل والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى أوهامهم ووساوسهم • والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى أوقات لا تصلح مطلقـا للتأليف ، لأنه يشترط فى المؤلف ما يشـترط فى القـاضى من الصحة وهدوء البال •

الباب الخامس

فى مباحث تمس الأخلاق

نبين فى هذا الباب قيمة العمل فى ذاته ، شر هو أم خير ، حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم تتكلم عن الارادة ، وعن الضمير ، وعن الاغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا فى هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية اجمالا لنبين بازائها آراء الغزالى نوعا من البيان.

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذى يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذى يجب أن لا يعمل ، أو ينبغى أن لا يعمل ، هو الشر . فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . أما الغزالى فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجبا ، وما يحسن أن يعمل مستحبا ، وما يجب أن لايعمل حراما وما ينبغى أن لا يعمل مكروها وما عدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال الى : حرام ، وواجب ، ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو المقول فيه : ان شئتم فافعلوه وان شئتم فاتركوه .

الحسن والقبح

وربما قسم العمل الى : حسن ، وقبيح ، ومباح ـ واليك اجمال ما فصله فى كتابه « المستصفى فى الأصول » :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة فى اطلاق لفظ الحسن والقبيح :

الأول ـ أن الأفعال تنقسم الى ما يوافق غرض الفاعل ، والى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ، والثالث يسمى عبثا •

الثانى ـ الحسن ما حسّنه الشرع بالثناء على فاعله • ويقول الغزالى : ويكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ؛ والمباح لا يكون حسنا •

الثالث ـ الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسناً مع المأمورات •

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه • وهنا يجزم الغزالى بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ، ولا قبيحا لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كانقاذ الغرقى والهلكى• ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وايلام البرىء، والكذب الذى لا غرض فيه •

ويحتج المعتزلة لذلك : بأنا نعلم قطعا أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال اليه ان كان عاقلا ، وليس ذلك الا لحسنه• وأن القوى اذا رأى ضعيفا مشرفا على الهلاك يميل الى انقاذه ، وان كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثوابا ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتعب به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا أكره المرء على افشاء السر أو نقض العهد •

ويجيب الغزالى : بأنه لا ينكر اشتهار هـذه القضايا بين الخلق وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : اما التدين بالشرائع واما الأغراض .

مثارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها الا المحققون ، من أجل ذلك نبه على مثارات الغلط ، وهى ثلاثة :

الأول : أن الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ، وان كان يوافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضى بالقبح مطلقا ، وربما يضيف القبح الى ذات الشىء ، فيكون قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيب فى واحد منها ، وهو أصل الاستقباح ، ومخطىء فى أمرين : أحدهما اضافة القبح الى ذاته ، اذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفته غرضه ، والثانى حكمه بالقبح مطلقا ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره بل عدم الالتفات الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن فى بعض الأحوال عين ما يستقبحه اذا اختلف الغرض .

الثانى : ما هو مخالف للغرض فى جميع الأحوال ، الا فى حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت اليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ، فيراه مخالفا فى جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقا ، لاستيلاء أحوال قبحه على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره .

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقرونا بالشىء يظن أن الشىء أيضا مقرون به مطلقا لا محالة ، ومثاله نفرة من نهشته الحية من الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فان الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المبيت فى بيت فيه ميت ، مع قطعه بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم فى كل ساعة حركته ونطقه .

نقض حجة المعتزلة

وبعد أن بين الغزالى هـذه المثارات أخذ يناقش ما احتج به المعتزلة وهو يرى أن الانقاذ انمـا يترجح على الاهمـــال فى حق من لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذى يلحق الانسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانســان يقدر نفســه فى تلك البلية ويقدر غيره معرضـا عنه وعن انقاذه ، فيســتقبحه منه بمخالفة غرضـه ويعود فيقـدر ذلك الاسـتقباح من المشرف على الهـلاك فى حق نفســه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم ، فان فرض فى بهيمة أو فى شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد تصوره • ويبقى أمر آخر : هو طلب الثنـاء على احســانه • فان فرض حيث لا يعلـم أنه المنقـذ ، فقـد يتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثا • فان فرض فى موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى فى النفس ميـل يضـاهى نفرة طبع الملدوغ من الحبـل المبرقش وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون بها على كل حال ، والمقرون باللذيذ لذيذ ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه •

بل الانسان اذا جالس من عشقه فى مكان • فانه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه • ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومى :

وحبب أوطان الرجل اليهـم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكذلك اخفاء السر ، وحفظ العهد • انما تواصى بهما الناس لمـا فيهما من المصالح • فمن يحتمل فى سبيلهما الضرر، فانما يحتمله لأجل

الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء • فيميل الوهم الى المقرون باللذيذ وان كان خاليا عنه •

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالى فى تأييد أهل السنة، وتخطئة المعتزلة. وتكون النتيجة على رأى أهل السـنة أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الأول ـ مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهـداية النـاس ، ولا معنى للهداية غير ارشادهم الى ما حسن أو قبح من الأفعال ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبيح • ولو كانت الأعمال خالصـة فى ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة الى الشرائع ، ولكان خيرا للناس أن لا يحملوا أعباء التكاليف •

الثانى ـ استهانته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الانسانية لاتصلح لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صاحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لا يكون الا بالشرع • فالزنا عندهم قبيح، لا لضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسنا ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يثبتـون به أنه حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهى الركون الى ما وقع فى الشرائع من الأغلاط ، فقد يندر أن تجد شريعة لم تمتد اليها يد التحريف ، فاذا شئت أن تتحاكم الى العقل لتنقى الشرائع من أوشاب

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد ، اذ يراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه • بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى • فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته»•

ويراه يقول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » :
« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات • وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها • ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان• الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتنعدم • ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة • وهؤلاء أيضا زنادقة • لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » •

وتهافت الغزالى فى هذا الحكم واضح • فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح • ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر الى

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد ، اذ يراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه • بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى • فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته» •

ويراه يقول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » :
« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات • وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها • ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان• الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتنعدم • ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة • وهؤلاء أيضا زنادقة • لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » •

وتهافت الغزالى فى هذا الحكم واضح • فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح • ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر الى

الايمان بأن النفس تموت • واذن فهو زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية !؟

لقد صرح الغزالى فى عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح فى ميزان العمل بأن الأمزجة تشكل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطا للمؤاخذة ، كما أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس فى الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذى أقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت؟ أيرى الغزالى أن من المحرم شرعا أن يدرس التشريح ؟ واذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك أنه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايمانا بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالى مال كثيرا الى ترضية العامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى !

وما أغرب قوله فى كتابه المنقذ من الضلال : « ثم رد ارسطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، الا أنه استقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها • فوجب تكفيره ، وتكفير متبعيه ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابى ، وأمثالهم » •

والغزالى الذى أسرف هذا الاسراف فى الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس • وانظر ما قاله فى تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ••• حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر

لا يجوز أن يحد ، اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهرا • فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب ، واساءة الظن بالمسلم بها » •

وعندى أن الرجـــل لا يكفر الا اذا عــرف الحــق وعاند ، فأى فيلسوف رأى رأيا شاذا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة • فكان من الحق على الغــزالى أن يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابى من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب •

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالى قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحــه وانما الأمر فى ذلك للشرع ، فقــد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقــل والشرع معا ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر • فالعمل خــير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل والشرع •

ولم يفرد الغزالى بابا لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل مايقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شىء مما يختص بها الا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع » وقال فى وصف العمــل الصالح : « وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقــل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ احياء •

اغفال الغزالى لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالى. ولكن ماهو الشرع ؟ وما هو العقل ؟

ان الغزالى نفسه وضع فى الأخلاق أحكاما لا نظنها تستند على عقل أو دين ! ولنضرب مثلا بما وضعه لنظام الطعام . جاء فى الميزان ص١٨٤ ما نصه : « وأما المطعم فهو الأصـــل العظيم . اذ المعـدة مفتاح الخيرات والشرور ـ ولهذا أيضا ثلاث مراتب : أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة . وذلك يمكن تقليـــله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئا فشيئا حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين. وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم الى حمصة وبعضهم فى الوقت الى عشرين يوما وقيل أربعين . وهـــذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بهـا » وقد أطال القول في فضائل الجوع فى الربع الثالث من الاحياء حتى قال: « روى أن عيسى عليــه السـلام مكث يناجى ربه ســتين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغيف موضـــوع بين يديه فجلس يبكى على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فانى كنت فى حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان اذا خطر لى شيء أكلته من غـير فكر ولا خاطر ! » .

وقال أيضا « الفائدة السابعة من فوائد الجوع ـ تيسير المواظبة على العبادة . فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر تردداه الى بيت المـــاء لكثرة شربه والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه » .

ففى الكلمة الأولى نراه يدعو الى تقليل كمية الطعام حتى تصل الى حمصة ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوما أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة • فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون المرء حياً ، فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جنديا يضرب فى الأرض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغى أن يوصف به الأنبياء ، والا فكيف ينبغى لنبى أن يناجى ربه ستين صباحا بلا طعام وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة ضعيف ؟ هذه جراة فى وصف الأنبياء والمرسلين ، فما أحسبهم الا رجالا اشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ، أما هذه الرهبنة التى تصورها الغزالى فلا تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين •

وفى الكلمة الثالثة ، يستكثر على المريد أن يضيع وقتا فى شراء الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى كيف يسير الناس ، اذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق مشربة بنزعة صوفيه بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف • والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب الأموات • وما ظنك بمذهب يجيز للغزالى أن يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده ويقصر همته على يومه ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا أو مستعدا للارتحال » •

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاد فى عالم الأحياء • ولم يبعد من وصف الأخلاق فى رأى الغزالى بأنها أخلاق العبيد !

الفصل الثانى
الارادة

- ١ -

وردت كلمة الارادة فى كتب الغزالى لأغراض متعددة : فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله ، ومنها المريد الذى يرد كثيرا فى كلامه ويريد به السالك فى ذاك الطريق ، طريق الصوفية .

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة أشياء : المال والجاه ، والمعصية ، والتقليد .

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة . ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع ايثار الخمول. ويرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب . أما المعصية فلا يرفعها الا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم .

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالتطهر للصلاة ولا بد للمصلى من امام . فكذلك لا بد للمريد من أستاذ ، وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنينا الآن . ويكفى أن يعرف القارىء ما يقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى « الميزان » و «المنهاج» و «الاحياء» .

- ٢ -

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة والارادة بهذا المعنى هى المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فنراه حينا يسميها القوة العاملة اذ يقسم قوى النفس

الانسانية الى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هى قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية » الميزان ص ٢٦ •

ونراه حينا آخر يسميها النية • ويعنونها كذلك فى الأربعين والاحياء • فلو أنك نظرت فى الفهرست لتعرف فى أى موضع تكلم عن الارادة ، ثم نظرت فى الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الارادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وانما رأيتها الارادة التى عناها الصوفية، واشتقوا منها كلمة مريد • فأما الارادة التى هى من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالى النية ، وله فى شرحها كلام طويل •

- ٣ -

يقول الغزالى « ان النية والارادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل • والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط • والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع • وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى • لا يتم الا بثلاثة أمور : علم ، وارادة ، وقدرة • لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة ، ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، اما فى الحال ، واما فى المآل » ص ٣٨١ ج ٤ احياء •

ويقول (النية هى الارادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفة • وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الارادة ، والارادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الارادة) ص ٢٦٢ من الأربعين •

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالى لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع أننا

لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩ •

- ٤ -

ويقرر الغزالى فوق ما تقدم أنه لا يكفى أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لا بد من أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له ، فاذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولا بد أن يفعل، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد •

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد • واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، ولكن قام الآخر بمعاونته • فالباعث الثانى اما شريك أو رفيق أو معين • ولهذا التقسيم مزية فى تقدير ما فى العمل من خير أو شر بتقدير البواعث ؟ فان العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر • بل ربما كانت النيات أقوى فى التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيرا من عمله ، كما جاء فى الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالى من أن أعمال الجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها فى القلب ، ليميل الى الخير ، وينفر من الشر[1] •

تربية الارادة

تربى الارادة فيما يرى الغزالى بتكرار طاعة الميل المحمود وتكرار

---

(١) أنظر ص ٢٦٣ من الأربعين

مجاهدة الميل المذموم . وفى ذلك يقول : « واذا حصـــل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فان المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله فى الابتداء الا ضعيفا . فان اتبـع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك، تأكد ميـــله ورسخ ، وعسر عليـه النزوع . وان خالف مقتضى ميـله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظـر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحـاورة ، تأكد ميله حتى يخـرج أمره عن اختياره فلا يقـدر على النزوع عنه . ولو فطم نفســـه ابتـداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً فى وجهه حتى يضعف ... لأن بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . الا أن القلب هو الأصل المتبوع، فكأنه الأمير والراعى . والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع »[1] .

والغزالى لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة . واذ كانت النية هى التى تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كـمـا تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جـــزاء العامل : فيكثر أجره ان قوى حبه للخير ، وبغضه للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد نص فى عدة مواطن من كتبه بأن المعول على القلوب ، حتى لنجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وأن الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفق اليها عـود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلمـا استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصـــدر عن نفور القلب منـه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر

عن الالف له ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات » ص ٣٣ ج ٣

أهمية الارادة

الارادة شرط للمسئولية، وشرط للجزاء • فالذى يعمل وهو ناس أو غافل لا يجازى ولا يؤاخذ • وانما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالى : لأن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند الغزالى هو كل شىء ، فليست الحسنة حسنة الا لأنها تصلحه ، أو تزيد فى صلاحه ، وليست السيئة سيئة الا لأنها تفسده أو تزيد فى فساده • والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها عنده ، لأن القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر اذا أتاها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ما تحلو السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وافساده • والذنب الواحد تختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى صغيرة ، لأن الارادة تختلف قوة وضعفا باختلاف درجة العلم ، اذ كانت ثمرة له •

ويقول الغزالى بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، اذ المطلوب منها تغيير القلوب، وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب• ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فانه اذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤ •

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، في حرية الارادة ، فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بانها دائرة بين الجبر والاختيار ٠

وأنا أرجح الرأى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الارادة على الاتجاه الى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة ٠ والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقا من الأخلاق ، يسير مضطرا الى ما يوافق ذلك الخلق ٠ والذى يحمله ضعف صحته على اللدد فى الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة ٠ والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار الى التزيى بهذا الزى ٠ فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسايرة الوسط الذى أعيش فيه ، وان زعمت ثم زعمت أننى مختار٠ والذى يقهره ظرف من الظروف على اتيان جريمة من الجرائم غير مختار ٠ وسيرقى القضاء يوما فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية ٠ فكثيرا ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول ٠

فاذا انتفت موانع الاختيار فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه ٠ وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ويصير الخيِّر جديرا بالمثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقا بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار ٠ أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للثواب والعقاب ٠

والغزالى لا يقول بحرية الارادة حرية مطلقة ، ولا بعجزها العجز المطلق ٠ ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ٠ وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما

الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة بقدرة هي كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة الى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ؟ واذا بطل الطرفان لم يبق الا الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب » ص ١٢٠ جـ ١ احياء .

والواقع أن رأى الغزالى هذا لا يفصح عن قيمة ما فى أعمال المرء من الاختيار ، فهى فى رأيه ليست جبرا لانها تفترق عن الرعدة وهى ليست اختيارا لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف اثباته على معرفة الأجزاء والأعداد ، لأن العمل الاختيارى قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحة فى اختياره .

ويقرر الغزالى مع هذا « أن فعل العبد وان كان كسبا له ، لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ، ولا لفتة خاطر ، ولا فلتة ناظر ، الا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والاسلام والكفر ، والعرف والنكر ، والفوز والخسر ، والغواية والرشد ، والطاعة ، والعصيان ، والشرك والايمان » ص ١٢٠ جـ ١ [1] .

وأنا لا أفهم ما هو هذا الكسب الذى يقره أهل السنة ، ويتابعهم الغزالى فى اقراره . فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، والا كانوا جبرية ، والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بأنه مختار ، والا كانوا معتزلة ،

---

(١) ٢٢١ ، ص ١٢٠ ج ١ احياء .

وهم قد سلقوا المعتزلة بألسنة حداد . فلم يبق الا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار ، وانما هو مكتسب : وهذا الكسب أيضا مراد لله . اذن فما الذى بقى للعبد المسكين !

الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف !

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الارادة خروجا على الله فى ملكوته ، والغزالى يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف أن يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال !

ان حرية الارادة الانسانية لا تضر الله شيئا ، فما بال أهل السنة يأبون الا أن تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، أثرا لارادة الله ؟

ولا قيمة لما يجيب به المتعسفون من أن اختراع الله للقدرة كاف فى اقرار الكسب للمرء ، فانه لا خلاف فى أن الله واهب القدرة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتئسوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزالى فى تربية الارادة ، فاذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الارادتين تربى ؟ ان هذا الا تناقض .

ونعود فنذكر أنه قرر فى مكان آخر من الاحياء « أن النية غير داخلة تحت الاختيار » وقد عرفت أنه يريد بالنية الارادة ، وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضا فى حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التى يقرر الغزالى أنها غير مختارة ليست هى الارادة بمعنى القصد ، وانما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهى التى

يعقبها التنفيذ • فمن الجائز أن أقصد الى أى عمل فى أى وقت ، ولكن ليس فى مقدورى أن أرغب رغبة صادقة فى كل ما يعن لى من الأعمال ، فى جميع الأحيان • وفى ذلك يقول الغــزالى « فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها • نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال احضار النية للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك • بل لا يتيسر له فى الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته » •

وخلاصة رأى الغزالى أن المـرء حر فى الاقبـال على ما شـاء من الأعمال ، وان كان فى اقباله انما ينفـذ ارادة الله ، ولكنه ليس صـادق النية فى كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب فى الجنة والتخويف من النار •

ولا يفـوتنا أن ننبه على ما دعا اليـه فى تربية الخلق من مخالطـة الأخيار ، فان فى ذلك اعترافا ضمنيا بتاثير الوسط فى الارادة الانسانية ، ونقله اياها من حال الى حال • وهــذا نوع من الجبر ، ولكنــه جبر معقول •

الفصل الثالث

الضــمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمرا بالخير ، أو ناهيا عن الشر ، وان لم ترج مثوبة ، أو تخش عقوبة •

والغزالى كما رأيت لا يرى شيئا حسنا لذاته ، أو قبيحـا لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسنا وقبحا ، فلا مجال بالطبع لأن يفرد بابا

للضمير ، اذ كان التكليف انما ينزل من السماء • والضمائر التى ترد فى كلامه انما يريد بهـا مكنونات الصـــدور ، وهى والسرائر من باب واحد • والانسان فيما يرى ليس مسئولا عن مراقبة ضميره ، اذ هـو لا يعرف الضمير • وانمـا يسأل عن مراقبة ربه ، وخشـيته ، فى السر والعلانية فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصـدور ، والمرء عن خشيته مسئول •

غير أنه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسبابا لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب، والاخلاق توجد للباحث فيهـا نوعا من ادراك الواجب ، والشريعـة كذلك تورث المتدين بها نوعا من الوجدان •

ولا نبعد عن الصواب اذا قررنا أن الغزالى يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وان لم ينـوه به ، ولم يختصه بالبيـان • واليك قوله فى ص ٨٥ ج ١ من الاحياء « ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصـــيرته ، وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسـمعه من غيره » وقد ردد فى كتبه هذا الحديث « الإثم ما حاك فى صـــدرك ، وان أفتوك وأفتوك » وليس ذلك الا اشادة بهذه الحاسة الباطنية التى يفزع المرء اليها عند ما يلتبس عليه وجه الصواب • الا أنه يجب ان نعرف ان نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير •

والحق أن الضـمير لا وجـود له فى ذاته ، حتى نؤاخذ الغـزالى باغفاله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية • حتى انك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد • فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهـارة عرضة لاحتقار الرأى العام ، ولذع الضمير !! ونهب مال الغريب لا جرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقاسون عند

نهبه تأنيب الضمير • بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره فى سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه فى سن الثلاثين، حسبما توجب الظروف • ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب ـ فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب ؟

كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما عـلاه قال للباطل ابعـد

وعندى أن فكرة الضمير اذا صح أن تكون عامة ، فيجب أن تقصر على المنافع البشرية • على معنى أن الضمير هو الحاسة التى تتألم لما يتوجع له الانسان من حيث هو انسان، بغض النظر عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه• فان للانسانية وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغـات ، ولا تباعد الأقطار •

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيرا باعتبـــار نتيجته ، أو باعتبار المقصود منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيرا لأنى أردت به الخير ، أو لأنه أنتـج الخير ، وان لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالى فى الجواب على هذا السؤال، ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعـرف رأيه فى كل نوع منها على انفراد •

وقد رأيناه يقسم أعمال الانسان الى طاعات ومعاصٍ ومباحات • أما الطاعات فلا تكون خيرا الا بالنية ، وهى الغرض فى التعبير الحديث • ويقول فى ذلك (ان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه • ولذلك

قيل : « انما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناء على هذا الأساس أنه لا قيمة للصوم اذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعتق اذا أراد السيد أن يتخلص من مئونة عبده ، ولا للحج اذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو اذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالى الا اذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها الى الله • ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأصلى • فان كان مساوياً له ، صار العمل لا له ولا عليه ، كما يقول • وان كان أقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب •

والغزالى ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيبين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان • ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص • ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا » •

ويلاحظ أن فى هذا تناقضا مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالى أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وان ساء الغرض منه • والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هى فى نظر الشرع طاعات ، وهى فى ذاتها خير ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالى بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع الى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها

يرجع نفعه الى جمهور الناس • وما أحسب الغزالى ينهى عن الاعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، اذ لا أقل من أن تكون تمرينا للنفس على عمل الخير • وقد صرح فى غير موطن بان التخلق مفض الى الخلق ومتى كان العمل نافعا للناس ، فالدعوة اليه واجبة ؛ والعامل حر فى الاستفادة من حسن نيته ان شاء •

واما المعاصى فهى شر على كل حال • والغزالى هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو اثم ، ولا عذر له من جهله لان الجاهل غير معذور الا اذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود • وقد علمت أنه يرى ان المعصية شر لانها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية اثم وان لم يعلم وجه اثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الاغراض بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصى صرفة اذا خبثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس •

الفصل الخامس
الوسائل والغايات

اذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالى أن تكون الوسيلة دائما شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة • وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التى يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ان أمكن التوصل اليه بالصدق وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا • وكما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان فى الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب • ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو

صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، الا بكذب فالكذب مباح[1] » وبعد أن بين الحالات الثلاث التى يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره[2] » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

(١) أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله • فله أن ينكره •

(٢) أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، اذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ، وان كان كاذبا •

(٣) أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره •

(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه •

وقد تنبه الغزالى الى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب لا ينبغى أن يقترف كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، والا وجب أن يكون الرجل من الصادقين • وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذى يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب • فله الكذب • وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق • وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى • لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة • فان شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣ •

---

(١) ص ١٣٩ ج ٣ احياء •

(٢) ١٤١ ج ٣ •

غير أن هذه الحيطة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالى الا اذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه • أما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به • وهذا من الغزالى نظر بعيد •

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، فليس هذا من الأغراض التى تقاوم محظور الكذب على رسول الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التى لا يقاومها شيء •

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالى صرح فى الجزء الأول من الاحياء ص ٣٧ « من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق الى الحق » وهو يرى أن « هذه من نزعات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب » وهذا منه اسراف• بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص ان كان فى وضعها مؤاخذة • ويكفى أن نعرف أنه يذكر فى كتبه من قصص الأنبياء والصالحين ، مالم يقم على صحته أى دليل • والرواية الكاذبة ليست أقل خطرا من التأليف !

وكما جاز الكذب فى سبيل الغاية ، كذلك تجوز فى سبيلها الغيبة• وقد صرح الغزالى بجواز الغيبة فى المواطن الآتية :

(١) التظلم• فان من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة، كان مغتابا عاصيا • أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به • ولا أدرى لم لا تستباح أعراض الظالمين ؟

(٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، ورد العاصى الى منهج الطاعة •

(٣) الاستفتاء، كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجى أو أخى، وكيف طريقى الى الخلاص • والاسلم التعريض ، ولكن التعيين مباح بهذا العذر •

(٤) تحذير المسلم من الشر • فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه • فلك أن تكشف له بدعته وفسقه • متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لاغير• واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

(٥) أن يكون المغتاب مجاهرا بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به •

وهنا يحتاط الغزالى : فيبين أنه ليس لك أن تغتاب المجاهر بفسقه الا بما يتجاهر به • فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، اذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق •

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبة • فللانسان أن ينم ، اذا كان فى النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية • كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، دفعاً للجانى عن المعصية ، ورداً لحق الماخوذ ماله • والنميمة فى هذا المثال اذا كانت ضرا فى جانب الظالم ، فهى نفع فى جانب المظلوم ، وهو أولى بالاسعاف • بل دفع الظالم عن الظلم خير له فى حاضره ، وابعاد له عن الضر فى مستقبله، اذا كان مستعدا للاقلاع عن الفساد •

الباب السادس

فى الأخـلاق

تمهيـد

كلمة أخـلاق وجدت قبل الغـزالى ، ففى الحديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا لأرسطو فى الأخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتابا فى صـناعة تهذيب الأخـلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتابا فى علم الأخـلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين •

والذى يعنينى الآن هو تحديد علم الأخـلاق كما فهمه الغزالى • وأقرر أنى بعـد مراجعة كتبه لم أجـده يساير من تقدمه من مجـددى الفلسفة اليونانية ، وانما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السـلوك ، وفقاً لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن نحا نحوهم من الفقهاء • ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسـميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحينا يسميه اسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق الأبرار ، وهو اسم لبعض مؤلفاته • وأهم كتبه فى الأخلاق نجده سماه احياء علوم الدين • فعـلم الاخلاق عنده هـو تكييف النفس وردها الى ما رسمته الشريعة وخطـه رجال المكاشـفة من علماء الاسـلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصـديقين ، والشهداء •

واذا كنا نجد ابن مسكويه مثلا يستشهد كثيرا بكلام ارسطاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقيين ، ومن اليهم من الحكماء ، فانا نجد الغزالى يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم ، والتسترى ، والمحاسبى ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ما روى عن عيسى ، وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء •

تعريف الخلق

نرى الغزالى فى ص ٥٦ من « الميزان » يعرف الخلق الحسن بأنه اصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب ، ونراه فى ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء • ويستشهد بالحديث : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) وبالآية (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ونراه يقول فى ص ٤٧ « واما حسن الخلق فبان يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق اليها فيؤثرها ويتنعم بها » •

وانما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة ، التى لا تغنى شيئا فى التحديد، لندل على ميل الغزالى الى الخطابيات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه فى الأخلاق •

ولكنه فى ص ٥٦ ج ٣ احياء عرّف الخلق تعريفا دقيقا فقال « الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة

على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح • وانما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الامساك والبذل • ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة •

الفصـــل الأول
تربية الخلق

ليس للغزالى رأى محدود فى الفطـرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل الى الخير منها الى الشر • يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعـــادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليــه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهى الميل الى أكل الطين ، فقـــد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر ربانى ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣ •

وما نريد أن نناقش هذا الرأى بأكثر من أن نلفت النظر الى أن الميل الى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيرا عن الميل الى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل الى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وانما تُوجه النفس بمقتضى الظروف • فكما أن المرء لايشتهى فى كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهى فى كل لحظة أن يكون خيِّرا أو شريرا ، وانما يظهر ميله الى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله الى الشر حين يوجـــد موجب الشر • بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غوياً أو ترد الغوى رشيدا • ولولا صـــلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا الى تربية الأخلاق •

كيف يربى الخلق

يرى الغزالى أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لا يحتاج الى تعليم ، ولا الى تاديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الانبياء• ولا يبعد فيما يرى أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ، فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريئا •

ومن أريد أن أناقش الغزالى فى حكمه بأن الانبياء لا يحتاجون الى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الانبياء ـ فى غير تبليغ الرسالة ـ كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن فى القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبى صلى الله عليه وسلم من الذنوب •

والطريق الى تربية الخلق فيما يرى الغزالى هو التخلق : أى حمل النفس على الاعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب • فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعا له •

والغزالى يهتم كثيرا برياضة النفس على مايرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول فى ذلك :

« كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة • وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب • ويعرف ذلك بمثال : وهو ان من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتبا بالطبع ، فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفا • ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى

الاخر الخط الحسن طبعا ، كما كان يصـــدر منه في الابتـداء تكلفا • فكأن الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا • ولكن الاول بتكلف ، الا آنه ارتفع منه أثر الى القلب • ثم انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبـــع • وكـذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه • حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس » •

ومن هنا كان الغزالى يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشــــقاء المؤبد ، لانها بدون التكرار لا تصبح صـــفة للنفس • ولا معنى للشقاء المؤبد الا أن تصير احدى الرذائل صفه نفسية لاحد الناس •

الفصل الثانى
امكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذى قبله ، فان تربية الخـلق معلقة على ازالة الخلق السيىء • ويرى الغزالى أن تغيير الخلق ممكن ويقول فى ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : « حسنوا أخلاقكم » لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الافعال نتائج الاخلاق ، كما أن الهـوى الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن اذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والفرس من الجماح الى السلاسة » •

ويظهر أن الغزالى شـــهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن تغييره ، والا كان طمعا فى تغيير خلق الله • وقد ذكر فى ذلك أن خلق الله قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكواكب ، وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، اذ وجد شرط التربية • وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان

النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربيه، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصير نخلا اذ تعلق بها اختيار الأدمى في تربيتها ويقول : « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشـهوة من أنفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنـه ، ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » •

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات الى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم فى الوجود ؛ ويقسـم الناس فى تغيـير الخلق الى أربع مراتب ــ الأولى : الانسان الغَفْل الذى لا يعرف الحـق من البـاطل والجميل من القبيح • وهو أقبل الاقسـام للعـلاج : فلا يحتاج الا الى مرشد والى باعث يحمله على الاتباع ــ الثانية : أن يكون قد عرف قبـح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح • بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقيادا لشهواته ، واعراضا عن صواب رأيه ، فأمره صعب من الأول ، اذ تضاعفت علته • فيلزم (ا) قلع ما رسخ فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس الى ضده ــ الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل • ويرى الغزالى أن هذا لا يرجى صلاحه الا على الندرة ، اذ تضاعفت عليه أسباب الضلال ــ الرابعة : أن يكون مع وقوع نشـوئه على الاعتقـاد الفاسـد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله فى كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره • قال الغزالى : وهـذا أصعب المراتب وفى مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليبيض • ثم قال • فالاول : من هؤلاء يقال له جاهل ، والثانى : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير •

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالى لا يريد من تغيير الخلـق الا قهره واسلاسه ، وقد صرح بذلك فى قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ! فان الشهوة خلقت لفائدة • وهي ضرورية في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وهلك • ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال • وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط » •

كيف يعرف المرء عيوب نفسه

يرى الغزالى أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج •

واذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى ان أحدهم ليرى القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فقد وضع الغزالى أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس •

الأول ـ أن يجلس المرء بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع اشارته فى مجاهدته •

الثانى ـ أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، نبهه اليه •

الثالث ـ أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فان عين السخط تبدى المساوى • ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه •

الرابع ـ أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم

نفسه به • فان الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شىء منه • فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره •

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالى فى هذا الباب الى القرآن ، اذ أن الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق • وبعد ان سرد جملة من الآيات قال : « فمن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض • فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣ •

والظاهر أنه لا يكفى دائما أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، اذ لا يدرى المرء أهو مخطىء فى التخلق بها أم مصيب • وقد تنبه الغزالى الى هذه النقطة فى غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب فى علاج البخل مثلا هو « الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين » ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذى يوجبه الخلق المحظور ، فان كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل • فان صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك • فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفاف الى المال ، فلا تميل

الى بذله ولا الى امساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامساك [1] » .

وفى هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامساك ، وانما يحاول الغزالى أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد .

الفصل الثالث

الطريق الى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالى البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس : ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفائها . وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها : فان كانت من حرارة فبالبرودة ، وان كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن

---

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ .

يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فانه يدوم بعد الموت أبد الآباد (؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فانه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار • وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى ان الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أهى ضعيفة أم قوية ، فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعه المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم • وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم • بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته •

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالى بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب فى ذاك الزمان [1] •

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص • وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر اذ ذاك بالسؤال • وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا فى النفس تحتاج فى اقتلاعها الى مجاهدة وعناء ، ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح ! !

---

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء . وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر ؟ والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع . ولكن ما هى الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

غاية الأخلاق ـ فيما يرى الغزالى ـ هى السعادة الأخروية وقد فصل هذا فى الفصل الاول من « الميزان » ويقول فى ص ١١٧ من هذا الكتاب : « ان السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها سميت سعادة، اما مجازا واما غلطا ، كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة . واما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها . فان الموصل الى الخير والسعادة ، قد يسمى خيرا وسعادة (؟ !) .

وهذا يدل على أن الغزالى ليست له غاية اجتماعية : فالذى يسعف مريضا ، أو يغيث ملهوفا ، أو يأسو جريحا ، أو يواسى فقيرا ، لا يهمه شفاء المريض ، ولا اغاثة الملهوف ، ولا برء الجريح ، ولا سـد حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب فى هذه الدنيا انما هى عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يوصل الى السعادة الأخروية قد يسمى خيرا وسعادة ! ! وقد نص فى ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفا ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ يماثله !!

مناقشة قصيرة

ونسأل الغزالى سؤالين اثنين :

أولا ــ اذا أسعفت مريضا وكان لا يهمك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لمسعاك فى هذه الدنيا ، وانما يهمك أن تصح نيتك فتثاب فى أخراك ، ألا تكون تاجرا فى غايتك الأخلاقية ؟

ثانيا ــ اذا تركت الزنا توفيرا لكرامتك أو لصحتك ، كيف لاتكون عفيفا ؟ ولماذا طلبت العفة ، ودعا اليها الشرع ؟

أليس ذلك لأن فيها حفظا للصحة ، وتوفيرا للكرامة ؟ واذا كنت تتخذ العقل مقياسا للخير والشر ، فخبرنى أيجد العقل ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر أكثر من انه مود بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر أن الغزالى سخر ممن يرون السعادة الآخروية فى نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وان نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الاخرة هى رضاء الله . أفلا يصح لنا قياسا على هذا أن نعد الطمع فى السعادة الاخروية عند اغاثة الملهوف ، واسعاف الجريح ، ينافى ما تسمو اليه الأخلاق ، وأن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته فى سعادة من أغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك فى الآخرة ، وان لم تثمر أعماله فى الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالى للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطىء فى فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلا يحسبها الغزالى نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الاحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراه يستكثر أن يحج المرء مثلا لينتفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترينا السر فى فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ؟ فالتجارة التى تنبه اليها الغزالى ثم استنكرها ، ليست شيئاً بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حجاجهم ، وينفض كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر. ولكن الغزالى يرى العمل كله فى العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضا عبادة مجردة ، وكثيرا ما نص الصوفية على أن لذائذ الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل ؟!

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق

قرر الغزالى حين تكلم فى التربية أن قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به اليه . فان عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا يدل على أن الغزالى يرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شىء ، وأنه ليس لها قبل التربية أى لون . فالخير اذن يكتسب بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير ، وانما يسعد أو يشقى بما يقدم اليه أبواه ومعلموه .

ويؤيد هذا قوله فى تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وانما أبواه

يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه : أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل • وكما أن البدن فى الابتـــداء لا يخلق كاملا ، وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصــة قابلة للكمال ، وانما تكمل بالتربية وتهـــذيب الأخلاق والتغـذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣ •

ولكنا نجد الغزالى يقرر فى ص ١٢٧ من « الميزان » أن النسب الدينى أمارة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزّاع • ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فاذا وقع عليــه نشوء الصبى انعجنت طينتــه من الخبث ، فيميــل طبعــه الى ما ينــاسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣ •

وهذا صريح فى الحكم بوراثة الأخلاق ، اذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعا من الأدب والتدريب ، اذ كانت تسبق الادراك والتمييز • يضاف الى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل الى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه • ومن الواضــح أنه لو كانت الفطــرة جميعا خالصة من كل الميول ، لكان واجبا أن يغرس الحياء فى الطفل بالتربية والرياضة • لا أن ينمى ، اذ لا ينمى غير الموجود •

ومما تقدم نرى للغزالى رأيين مختلفين فى وراثة الأخلاق • فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث • وحين يدعو الى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؟ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين الأمرّين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالى لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيــه متناقضا ، وغير محدود • ولو أنه عنى به عناية خاصة لبين لنا أن الأخلاق

تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة • فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التى يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ، والطباع التى يرثها المرء من أبويه لاتعاوده الا عند خمود مزاياه التى كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته اليها الأقدار •

اذن لا تناقض فى كلام الغزالى الا من حيث الظاهر • فهو يقول بوراثة الأخلاق فى ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وان كان يجعل للتربية السلطان الأكبر فى تكوين النفوس •

الباب السابع

فى الفضائل

نتكلم فى هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان أمهات الفضائل ومالها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى : كالصدق ، والصبر ، والتوكل ، والخمول ، وما الى ذلك مما تدور عليه حياة الأفراد ، وينبنى عليه الاجتماع ، ليرى القارىء ما يسمو اليه فى تصور المثل الاعلى للحياة •

تحديد الفضيلة

لا يفرق الغزالى بين كلمة فضيلة ، وكلمة خلق ، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس ، وصورتها الباطنة •

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه الى ما أخذ عن أرسطو وبعضه الى ماأخذ عن أفلاطون • فهو يأخذ عن أرسطو نظرية (التوسط) التى يسميها الاعتدال ، فقوة الغضب مثلا ان مالت عن الاعتدال ، الى طرف الزيادة سميت تهورا ؛ وان مالت الى الضعف سميت جبنا ، فأما ان ظلت وسطا بين الزيادة والنقصان فهى الشجاعة • فالمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان ، كما يقول •

ولا يجمد الغزالى على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل ما لا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور •

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فان الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات • والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر الى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان الى الأنموذج • والغزالى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبرياء • فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالى تماثل تماما مشابهة الله عند أفلاطون •

وأخذ أيضا عن أفلاطون نظرية التوافق L'harmonie ويسميها العدل • والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية • واليك ما يقول الغزالى فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة • وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث • أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال • فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة • وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ماتقتضيه الحكمة • وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت اشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع » •

ويجب أن نتنبه الى هذه الكلمة الأخيرة ، وهى (اشارة العقل والشرع) فان الغزالى يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى

فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول مثلة فى القرآن •
وأما التوافق فهو فى لفظ العقل ، اذ يرجـــع كل الملكات الى طاعته •
وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القــدرة ،
ومثالها مثال المنفذ الممضى • والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة ، ومثاله
مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه
بحسب الاشارة »

والأمر كذلك فى قوة العلم وقوة الشهوة • وقد نص فى «الميزان»
على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد
بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات • وهذا الترتيب الواجب
خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق •

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالى أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة
والعدل • وقد نص على أنه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب
من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية • ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة
بها تسوس الغضب والشـــهوة وتحملهما على مقتضى الحــكمة • ويعنى
بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها • ويعنى
بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع •

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالى ، فمن اعتدال قوة العقل
يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقــابة الرأى ، واصابة الظن ،
والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس •

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة والشــهامة ،
وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد•

وأما خلق العفة فيصدر عنـــه : السخاء ، والحيــاء ، والصبر ،

والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع •

وقد نص فى « الميزان » على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس جزءا من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل [1]) •

وقد لحظ الغزالى أن فى هذه الفروع شيئا من الغموض ، فكتب فى شرحها ثلاثة فصول مطولة فى الميزان ، وبين معها كذلك ما ينشأ من الافراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسنرجع اليها فى غير هذا الباب •

الفضائل السلبية

فى مقدورنا أن نقسم الفضائل الى ايجابية وسلبية : فالأمل فضيلة ايجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل فى سبيل الحياة • والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من سوء الحال •

وبعد أن نفهم هذا ننظر فى الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى • فنجدها فى الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الزهد، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع، وفضيلة الجوع •

ولم يعن الغزالى بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ، والاقدام والحرص ، وما الى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل ما لا يجد • فانه لا يكفى أن يسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة • وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة

---

(١) ص ٩٠

من أن يتحلى بفضائل الضعف • فان الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون •

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية • فالقناعة فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات • والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس •

والغزالى يعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لافراد يعيشون فى عزلة وانفراد • فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالى من آداب الوحدة والعزلة ما يقنعك ويرضيك • ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراسا يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء •

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالى أن فى مقدور المرء أن يصل الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء ، وانظر قوله :

« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال • ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد » •

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى يقربون من هذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا : فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

واظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد أحوال الصوفية ، فان ما استحسن الغزالى من احوالهم لا يمكن أن يكون مقتبسا من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا وساوس واضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

اين مقياس العقل والشرع ؟ هاتيه ، هاتيه : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالى الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام « ان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا . وان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ثم قال : ويكفى فى فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وقال : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » . وقال : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا » .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالى ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والارادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصـــدق في جميع ذلك فهو صديق ، ومن صدق في شيء فهو صادق بالاضـافة الى ما فيه صدقه .

الأول ـ صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق ولا يجـــوز العدول عنه الا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجرى مجراهم. وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز من اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالى : « فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق ، وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لأن الصدق ماأريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه . نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى المعاريض ما وجـد اليها سبيلا . فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر ورّى بغيره . كيلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ونمى خيرا » . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : « من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير » .

الثاني ـ صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله .

الثالث ـ صدق العزم . فان الانسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشطره ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل

وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة •

الرابع ـ صدق الوفاء بالعـــزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال ، اذ لا مشــقة فى الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ، وحصــل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه •

الخامس ـ صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة • بخلاف أعمال الرياء •

السادس ـ الصدق فيمقامات الدين ، كالصدق فيالخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب ، لان لامثال هذه الامور مبادىء يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق من نال تلك الحقــائق ••• وفى هذا المعنى شيء من الغموض •

الفصل الثانى

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم • فمتى علم الانسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه • ويقرب رأى الغزالى من هذا فيأساس الصبر ، الا أنه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين حتى تثمر الصــبر واليك قوله فى هذا المعنى : « ترك الأعمــال المشتهاة عمــل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة• وثبــات باعث الدين حال تثمرها المعــرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة • فاذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التى تسمى ايمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعا لطريق الله تعالى قوى

باعث الدين، واذا قوى ثباته تمت الافعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة وقال فى موطن اخر : « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه ان المعصية ضـــارة ، والطاعه نافعة ، ولا يمــكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى [٢] » ويذكر اميل بوراك فى كتابه :

Cours Élémentaires de Philosophie

ص ٣٤٣ ان العلم لا يكفى أساسا للفضيلة • فمعرفة الواجب لا تكفى للقيام به • بل لا بد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة • وهذا التقييـد يساوى ما اشترط الغزالى من اليقين ، لان المرء متى تيقن نفع شيء احبه، أو كاد يحبه • ويرى الدكتور منصور فهمى والاستاذ عبده خير الدين أن المعرفة التى يراها سقراط اساس الفضيله لا بد ان تكون المعـــرفه الجازمه التى تورث الارادة ثم التنفيذ • واذن فلا اعتراض على سقراط •

أسماء الصبر

ويقرر الغزالى أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المـرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمـــان • فان كان صبرا ، عن شهوة البطن والفرج سمى عفة • وان كان فى احتمال مكروه سمى صبرا ، وضده الجزع • وان كان فى احتمال الغنى سمى ضـبط النفس ، وضده البطر • وان كان فى الحرب سمى شجاعة ، وضده الجبن• وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، وضده التذمر • وان كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر وضده الضجر • وان كان فى اخفاء كلام سمى كتمان السر• وان كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده الحرص • وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، وضده الشره •

---

(١) ٦٧ ج ٤

(٢) ٧٠ ج ٤

درجات الصابرين

وللانسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال :

الاولى ــ ان يقهر داعي الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر •

الثانية ــ أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، وهى أسوأ الأحوال •

الثالثة ــ أن تكون الحرب سجالا بين الهدى والضلال •

حكم الصبر

ويقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم • فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر على الاذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت ويصبر ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر عن اظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله • فهذا الصبر محرم • والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ، كنظر الأجنبى الى امرأته •

ضرورة الصبر

ويرى الغزالى أن المرء محتاج الى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج اليه فى السراء ، كما يحتاج اليه فى الضراء • بل هو اليه فى السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية • والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق •

والطاعة تحتاج الى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفرد من العبودية •

وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والاخلاص ، والصبر على شوائب الرياء، والعزم على الاخلاص والوفاء. والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به ، والنظر اليه بعين العجب .

ويحتاج المرء الى الصبر عن المعاصى ، وعلى الأخص التى صارت مألوفة بالعادة ، اذن تنضاف العادة الى الشهوة . ثم ان كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، والمزح المؤذى للقلوب .

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع البلاء : كموت الاعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالى أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافى الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان الى الموت .

والذى كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالى بهذا أن يؤكد احتياج المرء الى الصبر فى جميع الأحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر باضعاف باعث الشهوة، وتقوية باعث الدين. ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس ما يشتهيه . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول أطماعه فى فوائد المجاهدة بالتفكر فى الاخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالى يسمى الخمول فضيلة ، ويخيل الىّ أنه لا فضـل فيه !!
ولكن تسمية الغزالى هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه فى الأخلاق:
ذلك أنه حين دعا الى الخمول، لم يدع الى التجرد من الخصائص الذاتية
التى توجب ذيوع الشهرة وبعد الصيت ؟ وقد خص الشهرة المذمومة
بما يأتى من طريق التكلف ٠ وهو لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله فى غير
جلبة ولا ضوضاء ٠

وقد نبه بلطف الى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص،
فقد يعوّد المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقلون ٠ وفى هذا
المعنى يذكر عن ابى العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام ٠
ولم ينس الغزالى أن التجمهر حول الأمراء فتنـة لهم ، وذلة لتابعيهم ،
فذ ذر فى هذا المعنى كلمة جامعة لعمر بن الخطاب ٠

ويقول الغزالى : « فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبيـاء
والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم
أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سـبحانه من غـير
تكلف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء،
وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جمـاعة من الغـرقى فالأولى به أن
لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم ٠

وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على
ذلك » ٠

فالرجل الخيّر فيما يرى الغزالى هو الذى لا يعرف غير الواجب
ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول ٠

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالى عن التوكل أربعا وخمسين صفحة فى الاحياء وثلاث عشرة صفحة فى كتاب الاربعين ، وسبعا وعشرين صفحة فى منهاج العابدين • وهو يبالغ فى المنهاج أكثر مما يفعل فى الأربعين والاحياء ، فان كلامه فى الكتابين الأخيرين واحد ، وان اختلف فى الايجاز والاطناب ، وكثيرا ما يحيل فى الأربعين على الاحياء •

وأول ما نلاحظه أن الغزالى اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج الى أن يعتذر عن تطويله فى كتاب المنهاج ، اذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب • وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانبا من أهم الجوانب فى فهمه للحياة •

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الأمثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر فى الأسواق ، ولكن الغزالى يقول « فالاهتمام[1] بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء اقبح ، لان شرطهم القناعة • والعالم القانع ياتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانوا

(١) ناقشنى الأستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما أخذته على الغزالى من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن «الاهتمام» هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ أن الغزالى قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة فى طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هى الاهتمام بالرزق . ولا زلت أرى أنه لامعنى لان يكون الاهتمام بالرزق قبيحا بذوى الدين حتى يكون بالعلماء أقبح . ولكن عذر الغزالى أنه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

معه ، الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق العالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، واعانة للمعطى على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤

ولو أنه دعا الحكومات الى الأخذ بيد العلماء ، واغنائهم عن السعى الى الرزق لتنحصر جهودهم فى نشر العلم ، لكان له قسط من الصواب. أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتناسب مع مكانة العلماء .

كراهة السؤال

ومع أن الغزالى يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل الثواب، فانا نجده فى مكان آخر يقرر أن السؤال حرام فى الأصل وانما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن فى السؤال اظهار الشكوى من الله باظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى المسئول : فقد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب . فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ .

ويمكن الحكم بأن الغزالى يحتاط أبلغ احتياط فى اباحة السؤال. ولكن يبقى انه من اهانة العلم والدين أن يقبل المرء بكليته على العبادة أملا فى أن يطعمه سواه ، فانه لا يعقل أن تكون نوافل العبادات مما يترك

فى سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها السوال[1] .

حكم الكسب

والغزالى مع هذا لا يرى الكسب منافيا للتوكل فى كل حال ، فمن الخطا فيما يرى ان « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فان ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الانسان فى سعيه الى مقاصده اما أن يكون لجلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق ، أو لازالة ضار قد نزل به . كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التى يجلب بها ثلاث درجات : مقطوع به. ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن اليه .

والأولى كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعا بين يديه وهو

---

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان أن يكون الغزالى قال شيئا من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة الخالصة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التى كانت عنده مايأتى : كانت قدم المعرى أرسخ فى الزهد من قدم الغزالى . فقد كان متحققا بالزهد عملا واشتهر ذلك عنه اشتهارا لاشبهة فيه . وقد قال :

الأمر لله قد أصبحت فى دعة ... أرضى القليل ولا أهتم للقوت
وشاهد خالقى أن الصلاة له ... أعز عندى من درى وياقوتى

ومع هذا فرأيه فى الزهد خير من رأى الغزالى ، لأنه كان مع اعجابه بالقناعة والزهد يعيب على القانع الزاهد أن يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

جائع • ثم لا يمد اليه يده ، لانه يرى السعى الى تناوله ومضغه تفـويتا للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالى جنون « فانك ان انتظرت ان يخلق الله فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة اليك ، او يسـخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله • وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت فى أن يخلق الله نباتا من غـير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون » •

والتوكل فى هذا المقام ـ كما نص الغزالى ـ لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك انه لا يجوز لك ترك الاسباب ، وانما تعلم ان الله هو مسبب الاسباب •

والثانية الاسـباب التى ليست متيقنة ، ولكن الغـالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كمن يترك الامصار والقوافل ، ويسافر فى البوادى التى ينـدر ان يطرقها الناس ؛ ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطا فى التـوكل ، بل استصـحاب الزاد سنة الاولين ، ولا يزول التوكل به •

وقد أسرف الغزالى حين تحدث عن هذا الموقف فى المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فان قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فاقول : ان كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فادخل ، والا كن كالعوام بعلائقهم » ص ٨٢ •

ولو أننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسـافر لعلمنا أنه احتـاط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بان ياخذ قدرا يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح المســافر بزاده فى الباديه من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالى أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بان ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هـل

ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب فى المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساسا غير التنسك الذى ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالى أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون القاء بالأيدى الى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، وثانيا أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، اذ لا يخلو الامر من أن يجد آدميا فى بحر الأسبوع أو ينتهى الى محلة ، أو قرية ، أو الى حشيش يجتزىء به !

وأحب أن يذكر القارىء هذه الصورة الغريبة ، فان الغزالى يدعو اليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ، ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل » .

وما أدرى كيف يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : فاذاً التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟ الا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهين !

وأحب أيضا أن يذكر القارىء هذا التناقض فى الجمع بين التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لامة قائمة وهى تربّى على هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق الا آن الثانى قد يجد من يتصدق عليه ، آو يجد حشيشا يقتات به ! ولو ذكر الغزالى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وآن الله كرم بنى ادم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرىء هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، فى طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التى يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى التـدبيرات الدقيقـة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالى « وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهـم ، اعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح » [1] .

واذا كان الاحتيال لكسب المبـاح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن فى بناء الممالك والشعوب . والغزالى يردد النفرة من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجمل بالتاجر من أن لا يكون آول داخل فى السوق ولا آخر خارج منه .

ونرى الحاجة ماسة الى أن ننبه الى أن فهم التوكل بهذه الصـورة خطأ صُراح ، وليس علينا من حرج اذا رأينا الغزالى من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

---

(1) ٢٨٨ ج ٤ .

مقامات المتوكلين

وللمتوكل مقامات ثلاثة :

الأول ـ مقام من يترك الزاد وهو يدور فى البوادى ، وانما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالى لأن فيه تثبيتا على الرضا بالموت !

الثانى ـ مقام من يقعد فى بيته أو فى مسجد ، ولكنه فى القرى والأمصار • وهذا أضعف من الأول كما يقول •

الثالث ـ من يخرج للكسب على الوجه الذى ارتضاه حين تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين•

توكل المعيل

غير أن الغزالى يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بان الموت من جملة الأرزاق •

أما المُعْيل صاحب الأولاد فانه لا يجوز له الا المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبى بكر رضى الله عنه اذ خرج للكسب « فاما دخول البرارى وترك العيال توكلا فى حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا فى حقهم ، فهذا حرام • وقد يفضى الى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذاً بهم • بل التحقيق انه لا فرق بينه وبين عياله • فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم » وهذه مجازفة من الغزالى: اذ يرضى أن يعوّد الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمرنهم على الاعتداد بالموت جوعا فى سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف •

يقول الغزالى : « وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت

ان تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادى التى لا تخلو عن الحشيش وما يجرى مجراه • فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الآذى ••• الخ » ؟

ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ، فانه يجر القادر على الطلب الى الرضا بالسؤال ، وانتظار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى به بناة الاخلاق •

الادخار

ورأى الغزالى فى الادخار عجيب ، اذ أفضل الحالات عنده لمن حصل على مال بارث أو كسب أو أى سبب من الاسباب أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت : فيأكل ان كان جائعا ، ويلبس ان كان عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ، ويفرق الباقى فى الحال • ولا يأخذ ، ولا يدخر ، الا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه ، فيدخره على هذه النية !

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلا كما يقول !

والذى يدخر لأربعين يوما فما دونها يحرم من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين •

ونحب أن يتأمل القارىء هذا الرأى فى الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به سببا لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق • ولكن كيف يحترم هذا العلم فى أمة يقول امام الأئمة فيها : ان ادخار المال لأربعين يوما يحرم المرء من المقام المحمود !؟

وقد تفضل الغزالى فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة ؟!

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت !!

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر الأوانى مع الحاجة اليها فى كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر الارزاق فى كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق انما يتجدد فى كل سنه ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه فى كل سنة . فياعجبا كيف يجيز التوكل اتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالى الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :

(١) أن يغلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة !

(٢) أن لا يترك فى البيت متاعا يحرص عليه السراق !

(٣) ما يضطر الى تركه فى البيت ، ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) اذا عاد فوجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح اذا أمكنه !

(٥) أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

(٦) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف !!

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم • بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء فى أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين •

وأظرف ما فى هذا الباب دعوة الغزالى الى أن يجعل الرجل ماسرق منه ذخيرة له فى الآخرة ، وان أعيد اليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالى أن الضرر قد يعرض للخوف فى النفس والمال • أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، او فى مجارى السيل من الوادى، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة •

وجملة القول أن أسباب الخوف اما مقطوع بها أو مظنونة أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة فى الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين ؟

وهنا لا نرى بأسا من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالى ، فقد عدّ من الأسباب الموهومة الكى ، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين الا بترك الكى والرقية والطيرة • ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وانما يريد أن يضيف المكتوين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين •

ولو كان للكى فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل، وهو يتعلق مباشرة بالصحة • وانما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير ، ومحقق ،

ونفعه قليل بل موهوم • وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطا فى التوكل الا لأن فى تركها تعويدا على المخاطرة ، وهى من صفات الأحياء ، فاذا اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعا من الحيطة ، فانى لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود !

واذا خاف الانسان على ماله ، فله أن يغلق بيته ، وأن يعقل بعيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله اما قطعا واما ظنا ، فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون •

توكل المريض

يقسم الغزالى الأسباب المزيلة للمرض الى مقطوع به ، ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام عند خوف الموت • وكان عليه أن يتنبه الى أن المرض متى وجد ، فالموت مخوف فى كل حال ، لان للمرض طفولة وحداثة وفتوة ، فان ترك وهو ناشىء أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء ألداء • فاما الموهوم فشرط التوكل تركه • وقد بينا ما تختلف عليه هذه الحال • وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما الى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظورا كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص • وهذا ما لا نوافق عليه الغزالى ، لأنا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله فى بعض الأحيان •

والى القارىء الأحوال التى يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أن يكون المـريض من المكاشفين ، وقـد كوشف بأن أجـله انتهى ، وان الدواء لا ينفعه (!) •

(٢) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته •

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفـع بالنسبة لعلته •

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر الصابرين، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيرا اذا طال ، وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر فى نفســـه مبادىء البطر والطغيان بطـول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفا من أن يعـاجله زوال المـرض ، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان •

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعتـه الصوفية ، فمن الواضح أن ايثار المرض فى سبيل الفرار من افات العافية ، انما هو عمل سلبى قليل الغنـــاء • وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك الى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخـــرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره الا فى الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية •

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر •

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله .

قال الغـزالى : « فبهذه النيـات يرخص فى ذكر المرض ، وانمـا يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قرينـة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الاولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للاظهار، لان الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء » .

وهذه الكلمة الاخيرة غاية فى الحكمة والسداد .

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء فى ص ٢٩٢ ج ٤ احيـاء ما نصـه : « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت. وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخـراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده ، وانما ذلك فى المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين فى زوايا المسـاجد . وما جرت السـنة بتفـريق الكيزان والأمتعة فى كل يوم وفى كل أسبوع » .

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية،

وقد وضع الغزالى مقياسا لتقدير الأعمـال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به فى القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والايمان بانه لا يضيع أجر العاملين ٠

الثانية

جاء فى المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فان قيل هل يلزم العبـد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضـمون الذى هو الغذاء والقـوام لا يمكننا طلبه اذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لايقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (؟!) فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن اين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقهـا » ثم كيف يصح أن يأمر العبـد بطلب ما لا يعـرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصـح تكليفه ٠ فتأمل » ٠

وقد تأملنا كثيرا ، فلم نر هذه الحجج الا خيالا فى خيال !

الثالثة

أراد الغـزالى أن يحض على التوكل فأمر بملاحظـة الجنين كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهى اليه الغـذاء لمـا كان عاجزا عن الحـركة والاضطراب ، فلما انفصل سلط الله على الأم الحب لترضعه وهى راغمة ، وأدرّ له اللبن اللطيف ، اذ كان مزاجه لا يحتمـل الغـذاء الكثيف ٠ وانتقل الغزالى من هذا الى بيان أن الكبير قد كثرت أسباب الرفق به ،

فبعد أن كان المشفق واحدا هو الأم أو الأب ، أصبح أهـــل البلد كافة يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسلمين ، الى آخر ما قال .

وهذه الحجة على الغزالى لا له ، فانه اذا كان الله وصل سرة الجنين بسرة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن المضغ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه القوة اذن ، اذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فأما ما قاله من أن كل واحد من أهل البلد اذا أحس بمحتاج تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته ، فهى أمنية شعرية، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليتخلصوا من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابتدأ الغزالى كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعـــالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الأحاديث والأخبـار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيـا تستريح اليـه النفس ، ويميل اليه القلب ، قل أم كثر ، اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه . ثم بين أنه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله .

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالى هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء. فان الباعث للأكثرين

على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالأتباع • والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله • وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين • ويفرح بقبول الناس قوله ، واقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين • ولو ظهر من اقرانه من هو احسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه هذا المهم بغيره • ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس الى غيرك • اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود • ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود اليه فى الآخرة » •

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه الأمور عليه ، ولو كان الغزالى من الذين باشروا الحركات العامة ، ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضروبا من الاخلاص فى نهوض الافراد بأممهم • وبين لنا كيف يتطرق الغرض الى الاعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الاغراض ، فليس الاخلاص وقفا على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص فى العبادة لا يضر الله شيئا فان الله غنى عن العالمين • ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمته ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مهين • ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن

فى توقى الرذائل

تمهيـــد

لم يضع الغزالى للرذيلة تعريفا يخصها بالذات ، وانمـا هى عنده افراط فى الفضيلة أو تفريط • وهو يرى أن الافراط فى قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون ، وينشأ من الافراط فى الشجاعة التهور وما اليــه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطة والتكبر والعجب والبذخ• ويصــدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصــغر النفس ، والنكول • وأما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط فى العفة ، فهى: الشره ، وكلال الشــهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة ••• الخ •

وألاحظ أن كلامه فى هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطة ، الانفراك ، التخاسس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشى ، النكول ، الغمارة ••• الخ •

والأمر كذلك فى الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق •

وينبغى أن لا ننسى أن الغزالى يوصى دائما بقلع الخلال الرديئــة

وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحلية ، أى اخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرائم النزعات •

واذ كنا بينا رأيه فى جملة من الفضائل الضرورية للافراد ، فانا ذاكرون كذلك رأيه فى طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة •

الفصـــل الأول
رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى التشفى والانتقام بعد وقوعها • وهو فيما يرى الغزالى ثلاث درجات : التفريط ، والافراط ، والاعتدال •

أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها • وهو مذموم اذ من ثمراته قلة الأنفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس •

وأما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقـــل والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار •

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتظر اشارة العقل والدين : فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم •

قال الغزالى « فمن مال غضـــبه الى الفتور حتى أحس من نفســه بضعف الغيرة ، وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محــله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه • ومن مال غضبه الى الافراط

حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين [1] .

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالى ترجع الى ثلاثة أقسام :

الأول ـ ما هو ضرورة فى حق الكافة كالقوت ، والملبس والمسكن، وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة زوالها ، ومن الغيظ على من يتعرض لها .

الثانى ـ ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير ، والغلمان ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور .

الثالث ـ ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص .

علاجه

وقد وضع الغزالى طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور .

أما الطريقة الأولى فهى استئصال الغضب باستئصال أسبابه واذ كانت الأسباب المهيجة له هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغى للخلوص من الغضب ازالة هذه الأسباب، وهى فى أنفسها رذائل تحتاج الى رياضة ، ورياضتها الرجوع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة

(1) ١٦٩ ج ٣ احياء .

أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فاذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا من الغضب الذى يصدر منها .

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع الى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال .

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه .

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه .

(٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضبان للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنبياء .

(٥) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ .

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم ينفع ذلك ، فاجلس ان كنت قائما ، واضطجع ان كنت جالسا ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك، فان لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد .

دوء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالى علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، أخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام . وهو

على الجملة لا يجيز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصى • ويجيز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام فى غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فانه يجــر الى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه • والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه •

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطىء الوقود بطىء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطىء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطىء الوقود سريع الخمود • قال الغزالى وهو الأحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة •

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحدا فى حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا على المعاقب فيـكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب الحظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه •

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالى كرر النصح بتجنب من يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجـولة • فان الفضل فى الصفح الجميل •

الفصل الثانى
رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالى وليد الغضب ، فان الغضب اذا لزم كظمــه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد ـ كما نص على ذلك ـ أن يلزم المــرء قلبه اســتثقال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى •

وللحقد ما يأتى من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به •

(٢) أن تزيد على اضمار الحسد فى الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء •

(٣) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك •

(٤) أن تعرض عنه استصغارا له •

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وافشاء سر ، وهتك ستر •

(٦) أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه •

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهة مما يؤلم بدنه •

(٨) أن تمنعه حقه : من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة •

قال الغزالى : « وكل ذلك حرام • وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى مايعصى به الله ، ولكن تستثقله فى الباطن • ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته • فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب [١] » •

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الاحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه •

---

(١) ١٨١ ج ٣ •

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالى أربع مراتب :

الأولى ــ أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وان كانت لا تنتقل اليه وهذا غاية الخبث •

الثانية ــ أن يحب زوالها اليه : لرغبته فى مثل تلك النعمة ، كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعم غيره بها •

الثالثة ــ أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها ، كى لا يظهر التفاوت بينهما •

الرابعة ــ أن يشتهى لنفسه مثلها ، فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه ان كان فى الدنيا ، والمندوب اليه ان كان فى الدين •

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسدا تجوّز ، فانما هى تمنى ما للغير ، وهو أيضا مذموم لقوله تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى •

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالى أن أسباب الحسد ترجع الى العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس • وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران ، والاخوة ، وبنى العم ، والأقارب ، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء •

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالى ينحصر فى تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة ، فان الحاسد انما ينكر فى غيره نعمة أنعم الله بها عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد ، فليس أضيع من وقت يصرف فى بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه •

وقد قرر الغزالى أن الحسد يكاد يكون طبيعة فى النفوس ، وأن الأمل فى السلامة منه بالكلية بعيد •

الفصل الرابع
رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه فى علم ، أو عمل ، أو مال ، ثلاث حالات :

الأولى ـ أن يكون خائفا على زواله ، ومشفقا على تكدره ، أوسلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب •

الثانية ـ أن لا يكون خائفا من زواله ، ولكن يكون فرحا به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث اضافته الى نفسه ، وهذا أيضا ليس بمعجب •

الثالثة ـ أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئنا اليه ، ويكون فرحه من حيث انه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث انه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب • فهو اذن استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم • قال الغزالى : « فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا ادلالا بالعمل •• والادلال

وراء العجب ، فلا مدل الا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لايتم الا مع توقع جزاء والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه [1]»

أسبابه وعلاجه

واليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول ــ أن يعجب المرء ببدنه : فى هيئته وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته •

وعلاجه أن ينظر فى مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعبث بها التراب •

الثانى ــ البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد •

الثالث ــ العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين • وآفة هذا الاستبداد بالرأى وترك المشورة •

وعلاجه أن ينظر فى مصير عقله لو أصيب بمرض فى دماغه •

الرابع ــ العجب بالنسب الشريف •

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل •

الخامس ــ العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين •

وعلاجه أن يفكر فى مخازيهم ، وفى مصيرهم يوم الحساب •

---

(1) ٣٧٧ ج ٣ •

السادس ـ العجب بكثرة العـــدد من الأولاد والخـدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع •

وعلاجه أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا •

السابع ـ العجب بالمال •

وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله •

الثامن ـ العجب بالراى الخطأ ، كما قال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » •

قال الغزالى : « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صـاحب الرأى الخطا جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جدا ••• وانما علاجه على الجملة ان يكون متهـما لرأيه ابدا لا يغتر به الا آن يشهد له قاطع من كتاب آو سنة او دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة [1] » •

وقد بين الغزالى فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى نسـيان الذنوب واهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدها لظنــه آنه مستغن عن تفقدها فينساها • وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له • ومتى أعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتها • ومن لم يتفقد آفات أعمـاله كان أكثر سـعيه ضائعا ، فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلمـا تنفع • وانما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون المعجب ، فانه يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، اذ يظن أنه قد استغنى وفاز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه • كما قال الغزالى •

---

(١) ص ٣٨٤ ج ٣ •

الفصل الخامس
رذيلة الكبر

يقسم الغزالى الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خُلُق فى النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح. ويسمى الباطن الكبر، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبرا عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده .

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول ـ التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون .

الثانى ـ التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش وبنى اسرائيل .

الثالث ـ التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحقر غيره .

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الأول ـ العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثانى ـ العمل والعبادة . ولكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى أن يكون الكبر مستقرا فى قلب المرء فيرى نفسه خيرا من غيره ، الا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد غرست فى نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها. الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على

الأقران واظهار الانكار على من يقصر فى حقه ، بتصعير خده وتقطيب جبينه • قال الغزالى : « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، وانما الورع فى القلوب [1] » •

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات •

الثالث ــ التكبر بالحسب والنسب •

الرابع ــ التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء •

الخامس ــ التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى ملابسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم •

السادس ــ التكبر بالقوة وشدة البطش •

السابع ــ التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين •

قال الغزالى « وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وان لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به[2] » •

وعلامات التكبر ــ كما ذكر الغزالى ــ تظهر فى شمائل الرجل : كصعر خده ، ونظره شزرا ، واطراقه برأسه ، وفى جلوسه متكئا • وتظهر فى مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ، وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله •

---

(١) ٣٥٥ ج ٣ •
(٢) ص ٣٥٧ ج ٣ •

وازالة الكبر ـ فيما يرى الغزالى ـ فرض عين ، وهو لا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له •

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى ـ قلع شجرته من مغرسها فى القلب ، وذلك بمعرفة المرء نفسه بالذلة ، وربه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالى •

الثانية ـ دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التى يتكبر بها الانسان على غيره ، وأنت لا تزال قريبا من تلك الأسباب السبعة التى توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجا خاصا ، غير أنه لا يفترق كثيرا عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فان أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وان كانت الثانية نتيجة الأولى •

الفصل السادس
آفات اللسان

وقد رأى الغزالى أن اللسان كثير العثرات ، ولا بد للمرء من ضبطه ، فبسط القول فى آفاته ، وكتب فى ذلك نحو خمسين صفحة ، بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها •

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال فى تبرير ما دعا اليه من الأخلاد الى السكوت : « فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من

الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس والخوض في الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وايذاء الخلق ، وهتك العورات .

فهذه افات كثيرة ، وهي سباقة الى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكف عما لا يحب ، فان ذلك من غوامض العلم » .

ثم خشي أن يرميه القارىء بالاسراف فقال : « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك مافيه من ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران .

فلم يبق الا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقي ربع ، وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجا يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا [1] » .

وهذا من الغزالي اغراق في حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الافات ، لنعرف رايه في طبائع الأفراد .

الكلام فيما لا يعني

أما الآفة الأولى : فهي الكلام فيما لا يعني ، وحده ــ كما قال الغزالي ــ أن تتكلم بكل ما لو سكتّ عنه لم تأثم ، ولم تستضرّ به في حال أو مآل ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها

---

(١) ص ١١٨ ج ٣ احياء .

من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع وما استحسنه من الأطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم .

ولم ينتبه الغزالى لخطر هـذا المثال . فان الكلام عن الأسـفار والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحـدث عن طبائع البـلاد وأخلاق الناس من المستحسنات. ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها الى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم فيقصـون علينـا ما رأوا فى أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والاطعمة والثياب ، وان عد الغـزالى حديثهم ولو احترزوا تضييعا للزمان .

ومما أصاب فى عده مما لا يعنى أن ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكر تأذى به واستحيا ، وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيـه . وكذلك سؤالك امرأً عن المعاصى ، وعن كل ما يخفيه ويستحيى منه ، وسـؤالك عما حدث به غيرك .

والباعث على هذه الآفة ــ فيما يرى ــ هو الحرص على معرفة مالا حاجة به اليه ، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد ، أو تزجية الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسـه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقـدر على ان يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

يقول الغزالى : « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه [1] » (؟ !)

---

(1) ص ١٢١ ج ٣ ــ احياء .

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهى فضول الكلام • وهو يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة • فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره • قال الغزالى : « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر[1] » •

وسبب هـذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى

الخوض فى الباطل

وأما الآفة الثالثة فهى الخوض فى الباطل • وعد الغزالى منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنيـاء • وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخـلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى • ويدخل الغزالى فى هذا الباب الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم • ثم قال : « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا[2] » •

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهى المراء والجدال • والمراء كما حده الغـزالى

---

(١) ص ١٢١ احياء ج ٢

(٢) ص ١٢٢ ج ٣ •

هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه • اما فى اللفظ ، واما فى المعنى ، واما فى قصد المتكلم » •

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به ان كان حقا ، وسكت عنه ان كان باطلا أو كذبا • ولم يكن متعلقا بأمور الدين • وليس له أن يطعن فى كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هـذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وانما أنت فيه صاحب غرض • يقـول الغزالى : « وهذا الجنس ان جرى في مسالة علميـه ربما خص باسم الجدل • وهو أيضا مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد • أو التلطف فى التعريف لا فى معـرض الطعن » •

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصـه بالقدح فى كلامه ، ونسبته الى القصور والجهل فيه » •

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالى هو الترفع باظهـار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان الى السبعية والكبرياء •

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على اظهـار فضـله ، والسُبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية فى عبارات المتقدمين هى القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمـل ، والعفة عن اكل ما يكسب الغـير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ، اذ لا يأكل غير فريسته) •

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهى الخصومة • وهى لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو مقصود • قال الغزالى : « فان قلت : فاذا كان للانسان حـق

فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ، ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج اليها في نصرة الحجة واظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ... فأما الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلا » .

وقد بين الغزالى كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان في عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات .

التقعر في الكلام

الآفة السادسة هي التقعر في الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيها بالتشبيهات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفاصحين .

والغزالى يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاما عاديا ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالى أن يلجأ الى المحسنات اللفظية، في غير افراط أو اغراب ، فان المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ في ذلك كله تأثير .

أما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالى ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغى أن يقتصر المرء في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم » .

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالى ترجع الى الباعث عليه وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة •

الفحش

الآفة السابعة هى الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة • وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد • وقد ذكر الغزالى من ذلك ما يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، والعيوب التى يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكناية فى مثل تلك المواطن •

والباعث على الفحش فيما يرى : اما قصد الايذاء ، واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم •

وقد عد الغزالى الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، وأضاف اليها « البيان » الوارد فى حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه ، أو المبالغة فى الايضاح حتى ينتهى الى حد التكلف • أو البيان فى أمور الدين ، وفى صفات الله أمام العوام ، اذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس •

اللعن

أما الآفة الثامنة فهى اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم •

وللغزالى فى هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول فى رجل حى من اليهود مثلا لعنه الله ، كما تقول لعن الله ابا جهل وفرعون ، فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة • ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه

ان لم يكن فيه أذى لمسلم ، فان كان لم يجز • ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لا يجوز ان يقال انه قتل الحسين ، أو امر بقتله ما لم يثبت ذلك • فضلا عن اللعنة : اذ لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز ان يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » •

قال الغزالى : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة الا على من مات على الكفر ، او على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هى المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالى هو الافراط فيه ، أو المداومة عليه • فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله : فلا تقول الا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيسقط وقارك •

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهى الاستهزاء • وحده كما قال الغزالى : « الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء »

وقد نص الغزالى على ان هذا انما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير •

افشاء السر

الآفة الحادية عشرة هى افشاء السر ، وهو مذموم لما فيه من الايذاء والتهاون فى حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالى : « وهو حرام اذا كان فيه اضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه اضرار »

وقد عد من حقوق الاخ على أخيه في كتاب الصحبة : « أن يسكت عن افشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وان كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا فى كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب ، فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه • فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن » •

الوعد الكاذب

الافة الثانية عشرة هى الوعد الكاذب ، وقد بين الغــزالى أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فمنعه •

الكذب فى القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هى الكذب فى القول واليمين • وقد نص الغزالى على « أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخــاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ما هــو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غـيره ورب جهل فيه منفعــه ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهـل يكون مأذونا فيه وربمـا كان واجبا » وقد بينا المواطن التى أباح الغزالى فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات •

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هى الغيبة • وحدها « أن تذكر أخاك بمـا يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى خلقه ، أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتى فى ثوبهوداره ودابته » •

وقد نص على أن التصريح ليس شرطا فى تحقيق الغيبة ، بل تكفى الاشارة ، والايماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل ما يفهم منه المقصود •

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

(١) موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام •

(٢) ارادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره •

(٣) اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر عيوب الناس •

(٤) البراءة مما ينسب المرء اليه بتنقيص من يفعله •

وقد تنبه الغزالى الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ، ويفعون فى صاحبه ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، مع انهم يكفيهم أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون لله حين يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء، فيحبطون ما يعملون •

والغزالى يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والاحاديث الواردة فى هذه الافه • وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن التى تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا فى الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه فى كفارة الغيبة فى الخروج من المظالم •

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هى النميمة • وهى كما يقول الغزالى «كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه ، أو كرهه ثالث • وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو

بالايماء • وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن [1] » •

ولم يقتصر الغزالى على تقبيح النميمة ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آدابا خاصة ازاء النمام • وهى :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة •

(٢) أن ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله •

(٣) أن يبغضه فى الله ، فانه بغيض عند الله •

(٤) أن لا يظن باخيه الغائب السوء ، فان بعض الظن اثم •

(٥) أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق •

(٦) وأن لا يحكى النميمة ، والا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه •

قال الغزالى : « والسعاية هى النميمة ، الا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : « نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لان السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى ، فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة » [2] •

ولا شك فى أن الغزالى يرتضى حكم مصعب فى قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينقضه • والسعاية والنميمة شىء واحد ، أو كأنهما شىء واحد ، فمن الواجب أن تكون

---

(١) ص ١٥٧ ج ٣ •

(٢) ص ٢٥٨ •

آداب المرء واحدة ازاء النمامين والسعاة ، وهو مانحسبه رأى الغزالى وان لم يصرح به •

وفى الوســـائل والغايات تجـد ما يجوز من النميمة فيما يرى الغزالى •

كلام ذى اللسانين

الآفة السادســة عشرة هى كلام ذى اللســـانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيمـــا يرى الغــزالى نفاق « ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحــد منهمــا و كان صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا ، فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الأخوة ، اذ لو تحققت الصــداقة لاقتضت معاداة الاعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الأخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمه ، اذ يصير نماما بان ينقل من احد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام • وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكن واحد منهما ما هو عليه من المعاداة لصــاحبه فهــذا ذو لسانين وكذلك اذا اثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهـــو ذو لسانين • بل ينبغى أن يسكت ، أو يثنى على المحـــق من المتعادين فى غيبته وفى حضوره ، وبين يدى عدوه ••• ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الراس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فان لم يقـــدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه [1] » •

المدح

الآفة السابعة عشرة هى المدح ، وهو منهى عنه فى بعض المواضع ،

---

(١) ص ١٦٠ ج ٣ •

وفي بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوبا اليه ، وقد بين الغزالى أن لهذه الرذيلة أربع آفات فى حق المادح ، واثنتين فى حق الممدوح ، أما آفاتها فى حق المادح فهى :

(١) أنه قد يفرط فينتهى به الافراط الى الكذب .

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ، ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائيا منافقا .

(٣) وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، ويرى الغزالى أن هذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى نعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه .

(٤) وقد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز .

أما آفاتها فى حق الممدوح فهى :

١ ـ أن المدح قد يحدث فيه كبرا واعجابا وهما مهلكان .

٢ ـ وأنه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضى عن نفسه ، فقل جده .

وبعد أن بين الغزالى آفات المدح ، دعا الممدوح الى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه ؟ وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح .

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هى الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين •

ومن الأمثلة التى ذكرها الغزالى أنه لا يصح أن تقول عبـــدى وأمتى ، لأننا جميعا عبيد الله ، ونساؤنا جميعا اماء الله ، بل تقول غلامى وجاريتى ••• الخ •

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هى سؤال العوام عن صفات الله تعـــالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة • يقول الغزالى : «وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث • وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عـز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر • وهو كســؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة » •

الغناء

الآفة العشرون هى الغناء ، وتجد تفصيلها فى البحث عن رأيه فى الفنون •

وانه ليخيل الى المرء أن الغزالى بالغ فى آفات اللسان ، ولكن هذه المبالغة ليست الا نوعا من الاحتياط ، وهى ليست كبيرة على من يطمع فى مكارم الأخلاق •

الفصل السابع
رذيلة الرياء

انك لترحم الغزالى حين تقرا ما دنبه عن الرياء ، فانك تتصـــوره رجلا كاد يجن من غلبة الجهال فى عصره • ويكفى أن نلخص آراءه فى هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين •

فممـــا يمقته الغزالى أن يظهر المسلم النحـــول والصفار ، ليـــدل بالنحول على قلة الأكل وبالصـــفار على ســـهر الليالى • يقـــول الغزالى : « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هـــو الـــذى خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذى أضعف من قوته »

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وابقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، والتطويل فى الركوع والسجود •• الخ •

ولم يغفل الغزالى عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم فى الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات، ليعرف بالامانة فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الايتام ، فياخذها • او يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستاثر بما قدر عليـــه منها • أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها • أو تسلم اليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ••• الخ •

وللغزالى فى هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد • ويظهر أن الناس لعهده كانوا يتخذون دين الله سلما لأغراضهم الخبيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال •

وأكرر ما قلته من أن الغزالى لا يغضب الا حين يحارب رذيلة يراها بعينه ، فكلامه فى ذلك صورة لعصره ، وليس أثرا لمطالعاته فى الكتب القديمة التى تصف عيـــوب الناس . وفى مقدور البـاحث أن يستخرج من كتاب الاحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد فى عهـــد الغـزالى . ولا أقـول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهـــده بضعف وفتور ، ولم يقاس السلاطين شيئا من لسانه الحديد !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب التاسع

فى العلوم والفنون والتربية

نذكر فى هذا الباب خلاصة لآراء الغزالى فى العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالايجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذى وضعه لتربية الاطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين ، وكيف اهمل تربية البنات •

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالى عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل للمريد ، فى مواطن كثيرة من مؤلفاته فى الأخلاق •

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأى في هذا البحث ، فتارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم • ويخيل الى أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل وأحسب أيضا أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم فى كثير من الشئون • فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع • ولو جرؤ قليلا لبين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما اليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث فى طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر فى أن الله سخر لنا ما فى الأرض جميعا •

غير أنه لم يكد يذكر قوله عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر » ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : اما ان يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، واما أن يكون علما سواه • وباطل أن يكون الاول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، والا فهو عابث فاسق ، والثانى أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل، لان العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وانما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » •

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل • ولكنه قسمها الى قسمين : عملى ونظرى • أما العملى فقد قدم انه ليس افضل من العمل ، وأما النظرى فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه الا ما يرجع « الى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث انها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها » •

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكر فى المعبود ، وما الى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوت السموات والأرض الى آخر ما قال •

ونسأل الغزالى : ما رأيه اذا توقف فهم الكتب السماوية على ادراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه اذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه اذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث،

لفهم ما قد يضطر اليه المشرعون من الرسـل والأنبيـاء فى مختلف العصور ؟

وما رأيه اذا توقف ادراك ما فى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى أهمية العلوم العقلية ، والنقليـة ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل الا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف .

ولكنى أحب أن أضع هذا السؤال : أيكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تغزى الديدان التى تحدث البول الدموى ، والتى تهلك فى كل عام ما يعد بالملايين ؟ وهل يقدم محيى الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته لا فى التفكر فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان « ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقـادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعا . اذ الشكوك هى الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصـر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء اذا بقى فى شكه ، ولم يهتد

الى اليقين • وما نحسب عصر الغــزالى كان يسمح له بتحرير هــذه المسألة ، وان كانت غاية فى الوضوح فمتى كان المرء حرا فى أن لايثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة ، فهـو بالضرورة غير مسئول عن الوصول الى نتيجة معينة ، وانما يسـأل عن اعتقاد ما اداه اليه الدليل •

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن الغزالى نبه فى عدة مواطن من كتبه الى أنه يجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشـك فى نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المالوف • ومعنى هذا أن الشك وان كان سـبيل اليقين ، الا أنه لا يسـتعمل الا بمقدار • وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالى يحرص على وحدة الهيئـة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال • فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى ان الاجابة على بعض الاسئلة حرام • وسنعود الى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين •

علم الفقه

ولقد بلغ من اغراب الغزالى فى التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا • وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده !

ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التى يساس بها الناس ؟ ليكن كذلك ! اذ ما قيمـة هـؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب الى الأرحام ، ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ، ثم الى العرض ، ثم الى الجنة أو النار ؟ واذ كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هى أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون فى خصومات لو عدلنا ما احتجنا الى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة فى هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالى !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم بالقوانين الأجنبية التى يقدم اليها اصحابها آيات التقديس ، عند الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالى ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس المناكيد الذين اضطرونا بشرهم الى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لما احتجنا الى قاض ولا الى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبى كان فقيها ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شىء آخر غير قواعد الفصل فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع ؟

اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا للمسلمين فان الله لم يبعث محمدا الا ليمكن للمؤمنين فى الأرض ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين .

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالى وقف فى جوهره على علماء المكاشفة .

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال ان سوء الخاتمة مُعدٌّ لمن ليس له منه نصيب !!

ويقال ان أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه لأهله ! ويقال كذلك ان أقل عقوبة من ينكره ألا يذوق منه شيئا !

وما هى غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات !

وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون !

يطمع الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك فى معرفة صفاته التامات ، وهو الذى بلغ به الادب مع الاشاعرة والمعتزلة الى الاختلاف فى صفات الله ، وفى كلامه ، وفى أفعاله ، وفى رؤيته بالابصار يوم القيامة ، الى غير ذلك من المباحث التى لا يقدم عليها غير عمى القلوب !

والظاهر ان الغزالى ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوما واحدا كيف تتصاول العقول ؟ فان البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وانما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سخر لهم ما فى الأرض جميعا ، فانه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب فى مجاهل من الظنون ، يسميها سفها علم التوحيد .

وما أسفت لشىء أسفى لانحصار الافكار الاسلامية « فى معرفة معنى النبوة والنبى ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحى اليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والارض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط

والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء » •

فان هذه فى الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروبا من التفسير والتأويل •

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب، ويدركون من نعيم الآخرة ما لايدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود ، وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتابا واحدا فى تحديد المراد من الخلافة الاسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب •

والغزالى من الذين ساعدوا على بقاء هذه العمايه ، فقد وضع الكتب المطوله فى كيفيه العزلة ، ولما اراد أن ينقد الشئون الاجتماعية ، وضع كتابه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، فكان آية فى السخف والاضطراب •

والى من نقاضى هؤلاء العلماء ؟

نقاضيهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين • وهل الاخلاق شىء آخر غير حرب الذلة والقلة: فى الافراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فان أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع • والا

فاين غرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وأين البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل واين الخبرة بالسريرة الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ، والعباد ، من كل راض بالفقر، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثانى
الفنـون

أباح الغزالى أن يحب المرء لجماله، فكان ذلك منه اعترافا بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنان ، والفيلسوف ، ما فى العالم من دقائق الجمال •

وتجد فى حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى ضرب المثـل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى والخضرة • ومعنى هـــذا أن الانســان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الاشياء بلا نية سيئة ، فقـد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث •

وشاهدنا فى هذه الفكرة ، هو أن الغزالى يؤمن بأن للروح شيئا من السلطان ، وله بعض الحقوق • فانه متى جاز أن يحب الرجل لجماله، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق فى أن يتمتـع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف • وهـذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء •

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح: فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء الى أن النفس تموت ؟ فانا سألناه .

هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالى جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكنا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر الى الفسوق • فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالى أيضا على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارىء أنه لم يذكر أصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه فى الفنون فقد أتى عليها جميعا بالنقد والتجريح ، وان لم ينكر « ان لله سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح » وأحسب أنه لو تروّى قليلا لعرف أن لله سراً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون •

الشعر

رأى الغزالى فى الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب • وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود لحميد ، وان قبح فى بعض الاحوال •

وقد رأى الغزالى نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدى رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التى وردت فى ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وانما هى من صنعة الشعر • فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التى وضعها الشعراء •

ولا أدل على هوان الشعر فى نظر الغزالى من قوله : « وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، الا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣ •

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذى يريد ان يمثل

عصره ، وقطره ؟ فى صحيفة التاريخ • ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد • وان جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه ، لأنه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح !!

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى ان الاحاديث التى رواها الغزالى فى ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الغزالى نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك الظروف •

الموسيقى

تكلم الغزالى عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه فى هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الاصوات الموزونة باعتبار مخارجها الى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت المزامير ، والاوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره • وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان اما انسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور • ثم يحكم بان سماع هذه الاصوات يستحيل ان يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، اذ لا ذاهب الى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطبل والدف •

الى هنا لا تجد شيئا يغض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : « ولا يستثنى من هذا الا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، اذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الانسان ، وانما حرمت لعلل ثلاث : احداها أنها

تدعو الى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر • الثانية : أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الانس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق اذا قوى فهو سبب الاقدام • والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقى ، والأوتار كلها، كالعود والصنج والرباب والبربط [1] وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فاما ما عدا ذلك فهو على الاباحة ، قياسا على أصوات الطيور •

وما نريد أن نناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحث فى الأساس الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دقته فى وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات •

ونضيف الى ما سلف من رايه فى الموسيقى ، انه عد بيع الملاهى من المنكرات التى يجب دسرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد اعطاء المال للمطرب اسرافا يجب على المحتسب انكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار • ونص فى ص ٣٢٧ ج ٣ احياء على ان أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت فى دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق فى أن يكسر العود اذا رأى شخصا يحمله •

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة فى نظر الفنان عن الحسنات ، اذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدث فى عشاقها من الجرأة على المألوف ، وهو ما يخافه الغزالى ويتوقاه •

---

(١) البربط : كجعفر هو العود معرب بربط أى صدر الاوز لأنه يشبهه •

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبنى دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير الا لأنها تذكر بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة. فهى عنده « أم الخبائث » ، وأصل المنكرات .

الغناء

لم يفرد الغزالى بابا للموسيقى ، ولا للغناء ، وانما نأخذ رأيه فى هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب الاحياء .

وأول ما يلفت النظر الى رأيه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى أن الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكروه ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا الى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالى يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فانه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه الى الحضيض ، ويسقط عدالته بين الناس .

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها مايجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضربا من اللهو المكروه ، وانما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالى. بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جناية !

والفن ــ كما تعلم ــ لا حياة له الا بوجــود الهواة ، فلن يحسن الغناء الا اذا وجد هواة الانشاد والســماع ، ومتى كان الاكثار من الانشاد ، والافراط في السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد ان يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد اصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالى من اباحته اذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا ان تقول انه مباح !

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالى ان يسمع الغناء من امراة لا يحل النظر اليها ، وتخشى الفتنه من سماعها ، وفي معناها الصبى الامرد الذى تخشى فتنته.

وقد توقع الغزالى ان يسال سائل : هل ذلك حرام في كل حال ، حسما للباب ، او لا يحرم الا حيث تخاف الفتنــة في حق من يخاف العنت ؟ واجاب بان هذه المساله يتجاذبها اصلان : أحدهما ان الخــلوة بالاجنبيه ، والنظر الى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنه او لم تخف ، لانها مظنه الفتنة على الجمله . والثانى ان النظر الى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المراة دائر بين هذين الاصلين . فان قسناه على النظــر اليها وجب حسم البــاب ، وهو قيــاس قريب ، ولكن بينهما فرق ، اذ الشهوة تدعو الى النظر في اول هيجانها ، ولا تدعو الى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسه كتحريك السماع ، بل هو اشد ، وصوت المراة في غير الغنـــاء ليس بعورة ، ولكن للغنــاء مزيد اثر في تحريك الشهوة ، فقياس هــذا على النظر الى الصبيان اولى لانهــم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الاصوات ، فينبغى ان يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه [1] .

---

(١) أنظر ص ٢٨٠ ج ٢ احياء

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالى من أن يكون فى الغناء تشبيب بوصف الخدود ، والأصداغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون فى امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة الا أن تكون زوجته أو جاريته ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة • ويحرم على من كان فى غرة الشباب أن يستمع ، اذا كانت الشهوة غالبة عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (؟) •

ما يباح من الغناء

واليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالى :

(١) غناء الحجيج ، اذ يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء•

(٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو •

(٣) الزجريات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء • وهـذا مباح فى كل قتال مباح ، ومندوب فى كل قتال مندوب ، ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة •

(٤) أصوات النياحة فى البكاء على الخطايا والذنوب •

(٥) السماع فى أوقات السرور المباح ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه، وعند حفظه القرآن، وعند قدوم الغائب •

(٦) سماع العشاق ، تحريكا للشوق ، وتهييجا للعشق ، وتسلية للنفس • وهـذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله ، كمـن

يعشق زوجته ، أو سر يته ، فيصغى الى غنائها لتضاعف لذته ، وكذلك ان غضبت منه جاريته ، او حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال • فان باعهـا أو طلقها حرم عليه ذلك بعـده ، اذ لا يجوز تحـريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء •

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقائه ، فلا ينظر الى شيء الا راه فيه • وقد أطال الغزالى فى هذه النقطه ، ثم قرر ان اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير ، اما فى الوجود واما فى الامكان ، أما جمال الله فلا ثانى له ، لا فى الامكان ، ولا فى الوجود (؟)

آداب السماع

لا يعتد الغزالى بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ، ولاحظ له فى السماع الا استـلذاذ الألحان والنغمات ، اذ كان هـذا الذوق لا يتطلب لوجود غيره الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة • ويسخر الغزالى ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان •

ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسـه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشـهود ، الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسـف عليه السلام (!؟) •

واذا سمع أحد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو

تعطش الى منتظر ، أو شوق الى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، او خوف من فراق ، أو فرح بوصال ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، الى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالا فى نفسه ، فيورى زناد قلبه •

ولهؤلاء وضع الغزالى الآداب الآتية :

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والاخوان : فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ولا فى شارع مطروق ، او موضع كريه ، او مع قوم من أهل الدنيا يحتاج الى مراقبتهم ، ومراعاتهم •

(٢) أن يكون مصغيا الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، منحرزا عن النظر الى وجوه المستمعين ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه .

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه • ولكن ان رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح •

(٤) موافقة القيام فى القيام ، اذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة •

وهناك أدب خامس وضعه الغزالى خاصا بالشيخ المرشد ، وهو ملاحظة المريدين ، فينبغى أن لا يسمع فى حضورهم ، اذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق الا الاعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل •

الرقص

وقد رأينا الغزالى يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو مايجرى فى مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للآخرة ، وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل فى مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريته . وعلى كل حال فلنسجل هنا ان الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالى أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات . وما نريد أن نفصل اثر هذا التحرج فى حياة الامم ، وانما ننبه فقط على أن الغزالى يضع حول الشهوة أسوارا من حديد ، ولا تخرج الاخلاق عنده الا رجالا مملوئين بالحيطة ، قد بغضت اليهم بسمات الحياة ، وقلما ينجح هؤلاء فى ميدان الحياة لأن التنسك باب الخمود .

النقش والتصوير

أراد الغزالى أن يذم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر ، فلم يزد على أن قال : « وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما »[1] .

اذن الصناعات دون العلوم ، وانما كان الطب والحساب الخ من الصناعات ؛ لأن العلم فيما يرى الغزالى هو ما يوصل الى الاخرة ، وما يخص الدنيا فهو صناعة . وقد نص على أن من الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها الى طلب التنعيم والتزين فى الدنيا من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ، ليكون بقيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين . ثم قال :

---

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣

« وليجتنب صناعة النقش والصياغة ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين [١] » .

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الأطفال منكرا تجب ازالته « والصور التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع مرتفعا لاتصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، وليعدل الى حمام آخر ، فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها [٢] » .

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان ... وأما الصور التى على النمارق ، والزرابى المفروشة ، فليس منكرا. وكذا على الأطباق والقصاع ، لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (؟) » .

على أن كلمة الغزالى لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ، فقد رايت كيف بين أن تشييد البنيان ، و لل ما تزخرف به الدنيا درهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد : « وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام ، لان التزيين من الاغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجرد الزينة فكذا الدور » .

---

(١) ٧٩ ج ٢

(٢)- وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتى : لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه أبى الهول وغيره من الصور وجعل أكبر همه ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من احياء الغزالى وقد رأيت فى بعلبك صورا فى الرواق المحمول على الأعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا انها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت كذلك صورة البغل وهو معبود أهل ذلك البلد قديما مشوهة ، وهو وجه انسان بصورة أسد .

واذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته غير مهمة [1] •

خلاصة هذا البحث

نرى مما سلف أن النقش مكروه وأنه لا يجوز تصوير الحيوان ، ولا حرج فى استعمال النمارق والزرابى المصورة ، بصورة الحيوانات طبعا ، لأنها موضوع الاستثناء • ويظهر انها استثنيت لأن الصــور فيها ستصير ممتهنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الأطباق والقصاع • وهو يتبع فى هــذا الرأى جمهور الفقهاء ، اذ يرون التصوير داعيا الى الوثنيــة • وقد نهوا عما يذكر بعبادة الاوثان •

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن ننبه اجمالا على أن الغــزالى لم يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التى قدمناها له فى الفنون الجميلة تدل على اهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق •

ومما يلاحظ أنه يغشى بعض النظــرات الدقيقة فى كتبه بأخبــار وأقاصيص تحمـــل القارىء حملا على ازدراء الزهادة ، والاخــلاد الى الخمول • وأكرر ما قلته غير مرة من أن فى هذا الشطط شيئا من الحق، وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة المطلقة من مواطن الشـبهات • ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك كثير من العيوب •

---

(١) كأنى بالرجل ينظر الى الشىء نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه اذا كان على حد الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه وهذا منشأ الاضطراب الظاهرى لأن الكلام فى موضوعين •

عبد الوهاب النجار

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسميها الغزالى رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبى فى التعابير القديمة تقابل كلمة طفل فى التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء كما نقول فتاة حسناء •

وقد سبقت كلمتنا فى وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا نعود اليها الان ، وانما نذكر المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، وهو تفصيل ما اجملناه فى واجبات الآباء •

فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء •

(٢) وأن لا يحبّب اليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التنعم : فيعسر تقويمه بعد ذلك •

(٣) واذا رأى فيه مخائل التمييز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الامور ، وأحسن ما تنمى به أن تستعان فى تأديبه وتهذيبه •

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغى أن يؤدب فى ذلك ، وأن يعوّد أخذ الطعام بيمينه، والبدء باسم الله ، والاخذ مما يليه ، وعدم السبق الى الطعام ، وعدم تحديق النظر اليه ، والى من يأكل معه ، والتمهل فى الأكل واجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم،

والحذر من تلطيخ اليد والثوب ، وتعود الخبز القفار فى بعض الأوقات ، حتى لا يرى الادم حتما[1] .

(٥) وينبغى أن يقبح عنده كثرة الأكل ، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الاكل ، وان يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة باى طعام كان .

(٦) وأن يحبب اليه الابيض من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وانما هو عادة النساء والمخنثين ، وان يحفظه من مخالطة الاطفال الذين عودوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب فى ذلك .

(٧) واذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغى أن يجازى عليه بما يفرح به ، وان يمدح امام الناس ، فان أساء مرة فيجمل بالوالد ان يتغافل عنه ، ولا يكاشفه ، ولا سيما اذا تستر الطفل واجتهد فى الاخفاء ، فان مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة . فان عاد فليعقب سرا وليحذر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ، وركوب القبيح .

(٨) وينبغى أن يمنع من النوم نهارا ، فان ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضاؤه ويعود خشونة الفراش .

(٩) ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفى الا ما يعتقد أنه قبيح .

(١٠) وليعوَّد المشى فى بعض النهار ، لتحبب اليه الحركة والرياضة .

---

(١) الخبز القفار هو الذى لا أدم فيه .

(١١) وليمنع من كشف أطرافه •

(١٢) وينبغى أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشيء ممـا يملكه والداه ، او بشيء من مطاعمه وملابسه ، او لوحه ودواته ، بل يعـود التواضع ، وطيب الحديث •

(١٣) ويجب آن يعلم آن الرفعـة فى الاعطـاء لا فى الاخذ وأن الاخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، ان كان غنيا ؛ وذلة ، ومهـانة ، ان دن فقيرا : فلا يصح ان ياخذ شيئا من الاطفال •

(١٤) وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواه ، ولا يضع رجلا على رجـل ، ولا يضع لده تحت ذقنه ، ولا يسند رأسه بساعده ويعلم كيفيه الجلوس، ويمنع لثرة الكلام •

(١٥) ويجب أن يمنع القسم ، صادقا كان أو كاذبا ، لئلا يعتـاد ذلك •

(١٦) وليعوّد أن لا يتكلم الا مجيبا ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع اذا تكلم غيره ممن هو آكبر منه سـنا ، وان يقوم لمن فوله ، ويفسح له المكان •

(١٧) ويجب أن يمنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب •

(١٨) وليعوّد الصبر اذا ضربه المعـلم ، فلا يكثر الصراخ ، ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنساء •

(١٩) وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به : فان منع الصبى من اللعب يميت قلبـه ، ويخمد ذكاءه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتّاب •

(٢٠) وينبغى أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبى •

(٢١) واذا بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة، والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج اليه من أمور الشرع •

(٢٢) وليخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الأطفال •

هذه خلاصة ما وضع الغزالى فى التربية • وما أنكر أن فيها شيئا من التكرار وارى انه فى مثل هذه المواطن جميل •

وانما ألاحظ أنه لا معنى لان تحبب الى الطفل الثياب البيض بنوع خاص • ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة اذ ذاك [١] • وألاحظ كذلك انه لا يصح ان يعلم الصبى ان هناك فئة مخنثة تميل الى الملون من الثياب، فقد يحسن أن لا تطرق اذان الصبى بمثل هذا الهجر ، بل يجب ان لا يعرف ان الطفل قد يتخلق باخلاق النساء • ولا افهم معنى لان يدعى الطفل الى عدم ارخاء يديه ، بل يضمهما الى صدره حين يمشى ! ويضحكنى ان ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التى لا تجمل بالمعلمين [٢] •

ومن أدق ماتنبه له الغزالى تلميحه الى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل اليه •

---

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية الى النظافة لان الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج الى التطهير •

(٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التى كانت بيده مايأتى : ان أطفال أهل السوذان فيهم هذه العادة على أتمها فانهم يعودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم • ومن فعل ذلك عير • بل كثيرا ما تجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضعها على ساعده ويذهب الى أمه ليريها صبره على بقاء النار تأكل فى جسمه دون اظهار تألم قائلا : ابشرى ياأمى أنا أخو البنات •

والغزالى يسمى المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له فى هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم فى عصره من المدارس الأولية والابتدائية • ويتلخص هـذا البرنامج (فى تعلم القـرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال • ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يُحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس فى نفوس الصبيان بذور الفساد » •

والغزالى يُعد الطفل فى الواقع لأن يكون جنديا فى الحياة اذ يحرم عليه كل مظاهر اللين • وان كان لم يغفل عن غايته الأخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظره فى كل ساعة ، وأن العقل من تزود من دنياه لأخراه • وأرى هـذه الوصية خطرة ، اذ تضعف العـزم فى نفـوس الأحياء ، ولا تترك للاسـلام نفسـه جيشا يحفظ به ثغر ، أو يفتح به قطر ، وما كان الاسلام الا دين الغزاة الفاتحين •

تربية البنات

لم يتكلم الغزالى عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهبهن نصيبا من عنايته • ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون •

وسترى حين تتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، ولكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام • ومعرفة الفرائض هـذه لا تفيد المرأة شيئا فى الحيـاة المنزلية ، وهى العبء الملقى على عواتق النساء •

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، ورأيت ماخطه لبرنامج التدريس فى المكاتب الصغيرة ؛ والآن نقفك على رأيه فى تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الامد القصير ، الذى أعد للأطفال •

والغزالى كان أستاذا فى المدرسة النظامية، وكان يختلف الى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمته البحث فى التعليم من حيث انه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالى عن التعليم ، وأطال فى كتاب الاحياء ، وتكلم عنه فى الاملاء على ما أشكل من الاحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الأفضلية بالتفصيل •

وكل ما تقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول فى ذلك : (وانما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية الدائمة، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا • فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله منه) [1]•

وعلوم الدنيا هى فى رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر • فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف• ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين •

---

(١) ص ٦٠ ج ١ •

اضف الى هذا أن الغزالى ـ لورعه ـ يشبه العلم بالمال ، فكما أن لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال انفاق على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف الأحوال •

والتبصير هو التعليم • والغزالى لا ينكر أن يكون المرء معلما ، فقد كان من المعلمين ، وانما يطالب المعلم بتعليم علوم الاخرة• او علوم الدنيا على قصد الاخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدم أخذ الأجر، ولكن هذا لا يقدح فى نظره الى التعليم كمهنة ، فانه يكفينا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتمل الاجادة ، كما تحتمل القصور ، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت ، ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول •

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه • ويقول الغزالى فى توابع هذه البنوة : وكما أن حق ابناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد، التحاب والتواد •

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب أجرا على افادة العلم ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا •

(٣) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من العلم الجلى •

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح والرحمة، لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الاصرار •

(٥) أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراء علمه : فليس

لمعلم اللغة أن يقبح فى نفس المتعلم علم الفقه مثلا ، بل ينبغى أن يوسع عليه طريق التعليم فى غيره • وان كان متكفلا بعدة علوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة •

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقى اليه ما لايبلغه عقله •

(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلى تدقيقا يدخره عنه •

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله • وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس اليه ، وأولاهم به ، اذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول •

(٩) أن يجمل نفسه كى يعظم فى نفوس طلبته فلا يستصغروه ، ولم يذكر الغزالى هذا فى آداب المعلم • ولكن ذكره استطرادا فى باب النظافة حيث قال : « كان رسول الله مأمورا بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم• ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره عيونهم • وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرعى من ظاهره ما لايوجب نفرة الناس عنه » •

(١٠) أن ينظر فى نية المتعلم : فان رآها حسنة علمه ، وان رآها سيئة أعرض عنه • فلا يجوز فيما يرى الغزالى أن نعلم من نرى فى أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل على فساد نيته ، وسوء قصده • ولا يكفى فيما يرى الغزالى أن يقول المعلم : انما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، ان شاء أحسن وان شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفا لقاطع الطريق ، ثم يقول : انما أريد

السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فان استعمل السيف في الأذى فهو وحده المسئول •

وربما كان يحسن بالغزالى أن ينصح المعلم ببذل الجهد فى غزو الغرائز السيئه التى يراها فى تلميذه ، فاما الضن عليه بالعلم فهو فيما ارى هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يغنى ولا يفيد •

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتى من الواجبات :

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف.

(٢) أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق •

(٣) أن يذعن لنصيحة المعلم اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق •

(٤) أن يحترز فى مبدأ أمره عن الاصغاء الى اختلاف الناس فان ذلك يحير ذهنه ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولا طريقة أستاذه ، ثم يصغى بعد ذلك الى الشبه والمذاهب •

(٥) أن لا يدع فنا من الفنون المحمودة الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالأهم واستوفاه ، وتطرف من البقية •

(٦) أن لا يخوض فى فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب •

(٧) أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم

مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض • وهذه الطريقة فيما أرى انما تصلح فى الفنون التى كان يعرفها الغزالى اذ ذاك ، فمن الواضح ان الفقه مثلا طريق للأصول ، ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب ، أو أن النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم انما يرجع الى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالى أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثانى السعادة الدنيوية والآخرة خير من الأولى • وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته • وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل •

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالى الى أن للحساب ثمرة لا تقل شأنا عن وثاقة دليله ، ولكن عذره أنه عاش فى عصر قد غاب عن انسانه أنه خلق لتعمير الوجود •

الباب العاشر

فى الحقوق والواجبات

الحق هو ما لَك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حقى أن أتعلم ، ومن واجبى أن أعمل بما أعلم .

ولكن الغزالى يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب . وربما استغنى عنهما جميعا بكلمة أدب .

وقد فصل الغزالى حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ما للمرء ، وما عليه .

ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره فى الحقوق والواجبات ، ليعرف القارىء اتجاه الفكر الاسلامى فى ذلك الحين .

- ١ -

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالى أن يجتهد فى أن لا يراه مولاه حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك الا بتوزيع أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه الى مسائه .

ويحسن فيما يرى الغزالى أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ، وأن يكون أول ما يجرى على لسانه ذكر الله ، وأن لا يترك السواك : فانه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسخطة للشيطان .

ولا يفوتنا أن نقرر أن عنـــاية الغزالى بالحث على ما تدعــو اليه الشريعة الاسلامية من الوضوء والغسل وما اليهما من انواع الطهارة ، انما هو دعوة صريحة الى الحياة • فان الاسلام بفرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقاع ، انما يرفع عن الناس اصارالبطالة والخمول •

ولا يعلم الا الله ما كانت تصل اليه حالة الشرق لو لم ينتشر فيــه الاسلام ، فانه يعوض على أهله ما فات أكثرهم من ســلامة الذوق ، اذ لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمـــون للطهارة وزنا • حتى لتجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لان الطهارة فى نظرهم عبادة الية ، لا تتعلق بها الاغراض ، وســبحان من وهب العقول !!

غير أننا لا نوافق الغزالى فيما ذكر من آداب النوم ، اذ يحض المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت فى لحده ، وأن يتذكر أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ولعل الله يقبض روحه فى ليلتــه ، وان ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه ••• الخ •

وما كنت لأوافق الغزالى على ذلك ، لأنه يجب اقصاء فكرة المـوت عن الأحياء فان التفكير فى الموت مدعاة الى الزهادة والجمود• وهو كذلك نقص فى العزائم ، وخمود فى القرائح •

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لا نزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير فى رفعة الأقدار ، وسمو النفوس ؟

وقد فصل الغزالى آداب المرء نحو نفسه فى أكثر كتبه فى الأخلاق • ولا عيب عليه غير الافراط فى تحقير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فان الدنيــا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الارزاق

وهل كان الله عابثا يوم خلق هـــذه الدنيــا الجميلة ، التى رميتم عشاقها بالاثم والفسوق ؟

- ٢ -

واجب المرء نحو اخوانه فى الدين

وضع الغزالى عدة آداب للرجل مع أخيه فى الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن وجزء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى واسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الغزالى وجودا لغير المسلم ؟ والا فما رأيه فى معاملة من ليسوا بمسلمين ؟

وفى جواب هذا السؤال نذكر ما جاء فى احدى فتاويه[1] من أن الذمى كالمسلم فيما يرجع الى الايذاء . لأن الشرع عصم دمهم وأموالهم. فيفهم من هذا أن الذمى والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وان لم ينص على ذلك فى الاحياء .

والى القارىء خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحدا منهم بفعل أو قول .

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .

(٣) أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب عليه .

(٤) أن يحسن الى كل من قدر على الاحسان اليه منهم ، بلا تمييز .

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم الا باذنه ، بل يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف .

(٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرىء بحسب

---

(١) انظر ص ٥٠ ج ١ من شرح الزبيدى .

طريقته : فانه ان أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمي بالفقه ، والعيي بالبيان، آذى وتأذى •

(٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان •

(٨) أن يكون مع الخلق مستبشرا طلق الوجه رقيقا •

(٩) أن لا يعد مسلما بوعد الا ويفي به •

(١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم الا كما يحب أن يعاملوه •

(١١) أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته •

(١٢) أن يصلح ذات البين مهما وجد الى ذلك سبيلا •

(١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم • وقد استشهد الغزالي بهذا الحديث البديع : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته) •

(١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر •

(١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر • ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياما بأخوة الاسلام •

(١٦) أن يتقي مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة •

(١٧) أن يجامل أخاه ويواسيه اذا بلي بشر •

(١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين •

ويرى القارىء في هذه الحقوق شيئا من التكرار • وهذا أيضا

يمثل وجهة الغزالى فى الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة ، ولا يزال بالمعنى يردده فى كتبه ، بل فى الكتاب الواحد حتى يرسخ فى نفس المستفيد .

- ٣ -

حقوق الجوار

ويرى الغزالى أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويرى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك) .

ويقول تعليقا على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتى من الواجبات :

(١) أن يبدأ جاره بالسلام .

(٢) وأن لا يطيل معه الكلام .

(٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل الى داره .

(٤) وأن يعوده فى المرض .

(٥) وأن يعزيه فى المصيبة ، ويقيم معه فى العزاء .

(٦) وأن يهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه •

(٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما •

(٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ماينكشف له•

(٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره •

(١٠) وأن لا يصب الماء فى ميزابه ، ولا يطرح التراب فى فنائه •

(١١) وأن لا يضيق طريقه الى الدار •

(١٢) وأن ينعشه من صرعته اذا نابته نائبة •

(١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره فى غيبته •

(١٤) وأن يغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر الى خادمته •

(١٥) وأن يتلطف لولده فى كلمته •

(١٦) وأن يرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه •

يقول الغزالى : هذا الى جملة الحقوق التى ذكرناها للمسلمين ، ولم يستثن المشرك فى جملة هـــذه الحقوق ، ولكنــك رأيت أنه خص الذميين بهذه المساواة ، اذ كان ايذاء الحربى عنده غير حرام •

- ٤ -

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار • وكذلك يثبت حقه بالقــرابة • ويروى الغزالى فى هذا أن أسماء بنت أبى بكر قالت : « قدمتْ علىَّ أمى ، فقلت يا رسول الله : ان أمى قدمت علىَّ وهى مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم • وفى رواية : أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها » •

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق القــرابة ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق •

- ٥ -

حقوق الوالدين

يقول الغزالى : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا فى حق الاخوة ، فان هـذه الرابطة آكد من الاخوة ، بل أكثر العلمـاء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وان لم تجب فى الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم .

ويرى الغزالى ان ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض الا باذن والديه ، لأن المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخـرج لطلب العـلم الا باذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم اذ لم يكن فى البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم فى جميع العلوم الضرورية فى الحياة .

وينقل الغزالى عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة فى البر على الوالد .

- ٦ -

حقوق الأبناء

يجب على الوالد :

(١) أن يسمى ابنه اسماً حسناً .

(٢) وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصـلاة ، فاذا بلغ ست عشرة سـنة زوجه .

(٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله .

(٤) وأن يسوى بين أولاده .

(٥) وأن يبدأ بالاناث اذا حمل لأولاده طرفة من السوق .

- ٧ -
واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالى ما ياتى من الواجبات :

(١) ان لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به علاء الاسعار وهذا مطرد في اجناس الأقوات . أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالادويه، والعقاقير ، والزعفران وامثاله ، فلا يتعدى النهي اليه وان كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت في بعض الاحيان وان كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجرى مجراه؛ على أن احتكار الأطعمة جائز اذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهة والتحريم .

وكان على الغزالى أن يبين حكم احتكار الأدوية اذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الامراض . فقد تصبح الأدوية أهم من الاطعمة ، ويمسى احتكارها من عظائم الأمور [١] .

(٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها .

(٣) أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا .

(٤) أن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا .

(٥) أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه .

(٦) أن لا يروج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، اذ يستضر به

---

(١) ليس بمستعصى على الانسان ان يفهم ذلك من كلام الغزالى . اذ هو يدير كلامه على محور واحد هو الرفق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم .

عبد الوهاب النجار

للعامل ان لم يعرف ، وان عرف فسيروجه على غيره • وهكذا دواليك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصي لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يسلم الى مسلم زيفا وهو لا يدرى فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم •

(٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولايمكن الا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب •

(٨) أن يحسن نيته في ابتداء التجارة • فينوى بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد •

(٩) أن يقصد القيام فى تجارته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس •

(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، ففى الخبر : « لا يركب البحر الا بحج أو عمرة أو غزو » •

هكذا يرى الغزالى • وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع واجب الرجل الاخلاقى فى الحياة الاجتماعية • فللتاجر أن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر فى التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل • والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة • ولكن أكثر الناس لا يفقهون •

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه • واذا حملت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة •

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويعد جوابه ليوم الحساب والعقاب •

(١٣) أن يقيل من يستقيله ، فانه لا يستقيل الا متندم مستضر بالبيع، ولا ينبغى أن يكون سبب استضرار أخيه .

(١٤) أن يخص فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو فى الحال عازم على ألا يطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة .

(١٥) أن يحسن فى استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة .

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوه بعناية الغزالى بصالح الهيئة الاجتماعية ، فان التاجر الذى يتأدب بهذه الآداب تمسى تجارته ولا شك ربحا عاما للناس ، ويصبح خادما لأهل بلده من حيث لا يعلمون .

هذا وجه الجمال فى هذه الآداب التى خص بها التجار وما أنكر أن فيها جانبا من الضعف باثقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة، والمستورة، فى حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة فى سبيل الحياة ، ولكن الغزالى لا يعدل بالسلامة شيئا والسعيد عنده من نجا بدينه ، وان خسر دنياه .

- ٨ -

آداب المسافر

وضع الغزالى فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ، وعدّه نوعا من الحركة والمحافظة . وبين الباعث عليه من هرب أو طلب ، وأطال فى ذلك وأجاد .

نحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته وبرد ما عنده من الودائع ، ولا يأخذ لزاده الا الحلال الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه .

(٢) أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل الدين ، فان المرء على دين خليله ٠

(٣) أن يودِّع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء ٠

(٤) أن يرحل من المنزل بكرةً فان الخير فى البكور ٠

(٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فان الارض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار ٠

(٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة ، فربما ينقطع ، أو يغتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل ٠

(٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها فى وجهها ، وأن يروِّحها بالنزول عنها غدوةً وعشية ٠

(٨) أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ومقراضا ، ومسواكا ومشطا ، وقارورة ، وركوة ، وحبلا ٠

(٩) أن ينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد فى أن يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدبا ينتفع به ٠

(١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام فى زيارة أخ له ، واذا زار أحد أساتذته فى سفره ، فلا يقم عنده أكثر من يوم وليلة ٠

(١١) أن يرجع من سفره اذا رأى فى نفسه نقصانا عما كان عليه فى الحضر ٠

وأحب أن ينتبه القارىء الى دقة هذا الادب الأخير ٠

- ٨ -

حقوق المرأة

لا يرى الغزالى أن المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة ٠ ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكها نفسه « أنه عكس القضية ٠

وأطاع الشيطان لما قال : « ولأمرنهم فليغيرن خلق الله » • اذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا • وقد سمى الله « الرجال قوامون على النساء » ، وسمى الزوج سيدا فقال : « وألفيا سيدها لدى الباب » • فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا [1] » •

ولم يقتصر الغزالى على ذلك ، بل حكم على طبيعه المراة حكما اقسى من الصخر ، فقد قال في معرض الحديث عن ادب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا اعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام : (مثل المراة الصالحة كمثل الغراب الاعصم بين مائة غراب) •

واليك جملة ما وضع الغزالى للمرأة من الحقوق :

اولا — على الرجل ان يحسن الخلق معها ، وان يحتمل الاذى منها ، ترحما عليها لقصور عقلها • ويقـــول الغزالى : « واعلم انه ليس حسن الخلق مع المراة كف الاذى عنها ، بل احتمال الاذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها » •

ثانيا — أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهى التى تطيب قلوب النساء • ويقـــول الغزالى : « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق » وهـذا تأكيد لرأيه في طبيعة المرأة •

ثالثا — الاعتدال فى الغيرة ، فلا يتغافل الرجـل عن مبادىء الأمور

(١) ان النساء يغلب عليهن المزاج العصبى • فهن يتأثرن بالتافه من الأمور ويجعلن من الهفوة الصغيرة امرا خطيرا ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة ويبنين علالى الشقاق على أوهن أساس • وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لأحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن فى البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخى الزوج وأخته ونحـو ذلك من أم زوج • وهكذا فهناك الشقاق الدائم والخصام الذى لا ينقضى • ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحـكم ، نافذ الكلمة ، مطـاع الامر ، فاذا ضعف أو وهن فلا انقضاء لشقاء البيت •

عبد الوهاب النجار

التى تخشى غوائلهـــا ، ولا يبالغ فى اســـاءة الظن ، والتعنت وتجسس البواطن •

رابعا ــ الاعتدال فى النفقة ، فلا ينبغى أن يقتر عليها فى الانفاق ، ولا ينبغى أن يسرف ، ولا ينبغى ترك الحلوى بالكلية ، وينبغى أن يأمر الرجل اهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفســـد لو ترك • وللمرأة ان تفعل ذلك بحكم الحال من غير اذن الزوج • ولا ينبغى ان يستائر الرجل عن أهله بمأكول طيب ، فان ذلك ينافى المعاشرة بالمعروف •

خامسا ــ على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فان لم يعـرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم ما دام الزوج لم يقصر فى تعليمها الفرائض ــ فان قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها • ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل الا برضاه • وللرجل الحق فى أن لا يدخل عليهـــا الرجال ، وان يمنعها من الخروج الى المساجد والاسواق •

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالى يقرر ويلح فى تحريم خلوة الرجل بالمرأة الاجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط هى التى يجوز لها عنـده زيارة المســـاجد وان خالف ذلك بعض الشىء ما كان على عهد رسول الله • ويكاد يجزم بأن النبى لو شاهد أهــل عصره لشدد فى التضييق على المرأة •

سادسا ــ اذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل ، فاذا خرج الى ســفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن ، والعدل واجب فى العطاء والمبيت، وأما فى الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق •.

سابعا ــ اذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ، فان كان من جانبهما جميعا ، أو من الرجـــل فلا بد من حكمين : أحـدهما من أهله والآخر من أهلها ، لينظـرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمــرأة أن

تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على اصلاحها كما يقول الغزالى •

وأما اذا كان النشوز من المـــرأة خاصة ، فللرجـل أن يؤدبهـا ، ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغى أن يتدرج فى تأديبها • فيقـدم أولا الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فان لم ينجح أولاها ظهـــره فى المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك ضربها ضربا غير مبرّح بحيث يؤلمهـا ، ولا يكسر لها عظما ، ولا يدمى لها جسما ، ولا يضرب وجهها فان ذلك منهى عنه •

ثامنا ــ أن ينظر الرجل فى حاجة امرأته الى التحصين ، فانتحصينها واجب عليه • وللغزالى فى هذا الموضوع كلام كله سذاجة : اذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجـــل عند الوقاع ، حتى ليـذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى يسمع أهـل الدار صوته !! وما أدرى كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والاوراد ، وما الى ذلك مما يضـــعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعا ــ الطلاق مباح ، ولكنه ايذاء • ولا يباح للرجل ايذاء المرأة الا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه • ومهما آذت زوجها أو بذأت على أهله فهى جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين • ويرى الغزالى أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق • وان كان الأذى من الزوج فلهـا أن أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع • وعلى الزوج أن يتلطف فى التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف • وأن يطيب قلبهـا بهدية على سبيل الجبر والامتاع ، وأن لا يُفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح •

ومما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالى لم يفكر فى المرأة الا من حيث هى زوجة ، فلم يذكر شيئا عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشىء من العلم اكثر من الفرائض ، وهى غاية بسيطة بالطبع ، لان تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف . وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه فى طبيعة المرأة ، اذ كانت عنده فى مقام التابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح فى مقام المتبوع !

- ٩ -
الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالى بهذه الحقوق فى صيانة المرأة ، بل حض الرجل على الرفق بها فى كل حال ، فذكر فى ص ١٢١ من كتابه «التبر المسبوك» أن من أحب أن يكون مشفقا على زوجته رحيما بها ، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئا بغير اذنه ، وهو قادر على ذلك وأنها ما دامت فى حباله لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهى تخافه ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق لأجلها أحدا ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ، وأنها تخدمه دائما وهو لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها اذا كان مريضا وهو لا يغتم لها ولو ماتت .

وألاحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض أن يكون الرجل مسيطرا على المرأة ، وأنها كالحمل الوديع . ومن الواضح أن الرجل لا يكون دائما على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائما بهذه الوداعة : ولكن عذر الغزالى فى اطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ،

فالرجل فى الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تســـمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذى لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالى ، أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها ان شاء ، ويتصرف فى البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحدا من العالمين •

- ١٠ -

واجبات المرأة

النكاح نوع رق ـ كما يقول الغـــزالى ـ فالزوجة رقيقة الزوج ، وعليها طاعته فى كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه • واليك خلاصة ماعليها من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، ملازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها واطلاعها على سطوح الجيران •

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا فى حال يوجب الدخول •

(٣) وأن تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا فى نفسها ولا فى ماله •

(٤) وأن لا تخرج من بيتها الا باذنه ، فان خرجت باذنه فمختفية فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها •

(٥) وأن لا تتعرف الى صـــديق بعلها فى حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه •

(٦) واذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضرا ، لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام ، غيرةً على نفسها وبعلها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله •

(٧) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها •

(٨) وأن تكون متنظفة فى نفسها مستعدة فى جميع الأحوال ليتمتع بها ان شاء •

(٩) وأن تشفق على أولادها •

(١٠) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد •

(١١) وأن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها •

(١٢) وأن لا تذهب الى الحمام ، الا اذا لم يكن فى البيت مستحم ، وكانت نفساء أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمئزر سابغ •

- ١١ -

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب فى تصور الغزالى للحياة ، وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد تتبين بذلك وجهة نظره فيما ينبغى أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ الا لمثل ذلك كليات الصحافة فى العهد الحديث •

ويرى الغزالى أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بُعد المـاء وقربه تحت الأرض •

(٢) وأن يعـــرف زيادة الليل والنهار ، ونقصـانهما ، فى الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم •

(٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم •

(٤) وأن يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين •

(٥) وأن يعرف الطب والأدوية •

(٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب •

(٧) وأن يعرف الشعر والقوافي •

(٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء •

(٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال !

(١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه •

(١١) وأن يظهر بشبا قلمه ما يجول في نفسه •

(١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف •

(١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه •

وقد وضع الغـــزالى فوق ما تقدم صورة لمـا يمـــد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصـــلابة ، وما ينبغى أن يمتـــاز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال • وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لرأيهم اذ ذاك فيما ينبغى أن يكون عليه الكتاب •

- ١٢ -

واجبات الملوك

يتكلم الغزالى كثيرا عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم ، وتجد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين ارشاد العامة ، وارشاد الأمراء والســلاطين كما يقـول ، وقد وضع لهم

كتابا خاصا سماه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن .

ويستحسن الغزالى أن يقسم الملك نهاره الى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وانصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وانفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم ، والتزود من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك .

وينصح الغزالى للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج ، والنرد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الربح خسرانا .

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الاقلال ، ولكن هذا ينافى حرص الغزالى واصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا فى كتب « التبر المسبوك » .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول :

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعادته اذا أحسن ، ومن شقائه اذا أساء .

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول .

(٣) أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام .

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية فى كل ما يعرض عليه فما لا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين .

(٥) أن لا يشغل بنوافل العبادة ، وببابه أحد من أرباب الحوائج .

(٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشــهوات : من لبس الثيـاب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؛ بل يتعود القناعة فى جميع الأشـياء ، فلا عدل بلا قناعة .

(٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق .

(٨) أن يجتهد فى أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع .

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع .

(١٠) أن يعين رعيته اذا وقعت فى ضائقة ، وأن ينفق عليهـا من خزائنه ، اذا وقعت فى قحط أو غلاء ، لأن فى ذلك استبقاء لطاعتهم ودرءا لمطامع المحتكرين .

والغزالى لا يستنكر قسوة الملك ، اذا لؤمت الرعيـة ، بل يدعو الى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : « وسلطان هـــذا الزمان يجب أن تكون له أوفى ســياسة ، وأتم هيبــة ، لأن أناس هـــذا الزمان ليسوا كالمتقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذوى الوقاحة والسفهاء ، وأهل القساوة والشحناء . واذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفا أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين »[1] .

والسياسة فى كلامه هـــذا معناها الحزم فى شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون .

- ١٣ -

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول ــ اذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعـاجله بالعقوبة .

---

(١) ص ٥٥ « التبر المسبوك »

الثاني ـ اذا اتسعت حاله في خدمته واستغنى ، فلا يطمع في ماله وثروته .

الثالث ـ اذا سأله حاجة فلا يتوقف في قضائها .

وينبغي أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول ـ أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه .

الثاني ـ أن لا يسمع في حقه كلام مفسد .

الثالث ـ أن لا يكتم عنه شيئا من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة الخزائن والولايات .

ويجب على الوزير :

أولا ـ أن يكون محباً للخير ، مبغضاً للشر .

ثانيا ـ أن يعين الملك على الشفقة بالرعية اذا رأى منه الميل لذلك .

ثالثا ـ أن يرشده باللطف اذا رأى منه ميلا للظلم .

ويقول الغزالي في نصح الملك الذي أهداه كتابه : « وينبغي أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيـــا بالملك ، وينبغي أن تعـلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩ .

وهذه الواجبات التي وضعها للملوك والوزراء تعتبر في الواقع مجملة بالنسبة لمـا يحتاجون اليه من شتى الآداب في معاملة الرعية ، ومعـــاملة جيرانهـم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حـكم الشرع في جملة هذه الآداب ، وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم في هذا الباب .

- ١٤ -

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانبا من جوانب الأخلاق عنـد الغزالي رأيه في معـاملة الظلمة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ مالا منهم أن ينظر

كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التى استحق بها الأخذ ، والمقـدار الذى يأخـذه ، وهــل يستحقه اذا أضيف الى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق ، وبين أنه اذا لم يعرف للسلطان دخل الا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض • وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئا من مال الظالم على الاطلاق ، فان لم يستطع فيأخذ ما يتأكد أنه حلال •

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور • ولا تجوز زيارة الملك الجائر الا بعذرين : الأول ـ أن يكون من جهتهم آمر الزام، لا أمر اكرام ، ويعلم الرجل أنه ان امتنع أوذى ، أو فسدت طاعة الرعية: فتجب عليـــه الاجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصـــلحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية •

الثانى ـ أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم ســواه • أو عن نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم •

واذا دخل عليك السلطان الظالم زائرا فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه ان لم يكن معه أحد • ثم تأخذ فى تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرىء عليه • وارشاده الى ماهو غافل عنه •

والأفضل فيما يرى الغزالى أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يرونه ! والأمر كذلك فى معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم •

وللغزالى فى هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمـون من القناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأســواق • وأخص ما يلاحظ أنه انما يدعو الى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يفضى الى فتنة أو اضطراب •

حقوق الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصداقة ، الى غير ذلك مما تثمر الألفة والألفة — كما نص الغزالى — ثمرة حسن الخلق ، اذ يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التباغض ، والتحاسد ، والتدابر •

ويجب فيما يرى الغزالى أن يكون للرجل أعداء يبغضهم فى الله ، كما يجب ان يكون له أصدقاء يحبهم فى الله •

ولكن الحب فى الله ، والبغض فى الله غامض ، ولكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة الى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، وفى المدرسة ، أو فى السوق ، أو على باب السلطان ، أو فى الاسفار ، والى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو المراد • اذ لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية • والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة • وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره الا اذا أحبه • والذى يحب : اما أن يحب لذاته ، واما أن يحب للتوصل به الى مقصود ، وذلك المقصود : اما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها • واما أن يكون متعلقا بالآخرة ، واما أن يكون متعلقا بالله تعالى •

حب المرء لذاته وجماله

يرى الغزالى أن الانسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه فى حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة فى الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل فى هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال اذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فان الجمال مستملح لذاته ، وان قُدر فقْدُ أصل

الشهوة • والغزالى يضرب المثل لهذا بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والازهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى ، والخضرة من غير غرض مذموم اذ تحب لعينها • وهذا الحب كما يقول الغزالى لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف بمدح ولا بذم •

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يحب الانسان لينال من ذاته غير ذاته • كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده •

والمتوسل اليه ــ كما يقول الغزالى ــ ان كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب فى الله ، وان لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لاستاذه ، فهو أيضا خارج عن الحب لله ، فانه انما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم •

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالى الى مذموم ومباح ، فان كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الأقران، وحيازة اموال اليتامى، وظلم الرعية بولايه القضاء او غيره ، كان الحب مذموما • وان كان يقصد به التوصل الى مباح فهو مباح •

الحب للمنافع الأخروية

وقد يحب الانسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه فى الدنيا ، بل يرجع الى حظوظه فى الآخرة ، كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة • وهذا من جملة المحبين فى الله • ومثله من أحب زوجته لأنها آلة الى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح •

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالى : ليس من شرط حب الله أن لا يحب فى العاجلة حظاً آلبتة • ويقول : اذا اجتمع فى قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا • فاجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوسل به الى الله والى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعا فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال •

الدنيا خليقة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق اليه الغزالى حين قال : « وعلى الجملة ، فاذا لم يكن حب السعادة فى الآخرة مناقضا لحب الله تعالى ، فحب السلامة، والصحة والكفاية والكرامة فى الدنيا ، كيف يكون مناقضا لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين احداهما أقرب من الأخرى • فكيف يتصور أن يحب الانسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وانما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالا راهنة • فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة• الا أن الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذى احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه • والى مالا يضاد ، وهو الذى لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال •

« وليس بمستنكر أن يشتد حبك لانسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل فى جملة الحب لله » •

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها فى صوابها تناقض ما يردده الغزالى من احتقار الأغراض الدنيوية ، والاشادة بالحياة الأخروية مما يخيل الى القارىء أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

وقد يحب الانسان فى الله ولله • دون أن ينال منه شىء ، أو يتوسل به الى أمر وراء ذاته ، وهـــذا أعلى الدرجات ، وهـــو غاية فى الدقة والغموض •

ميزان الحب

بين الغــزالى أن المرء قد يحب لذاته ، وقد يحب لمقصــود دنيوى أو أخروى ينال منه ، وقد يحب لله ، لا لغرض يقصد فى حال أو مآل •

ولكن ما هى دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟ وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالى ميزانا هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود ، وهو المال ! وانظر قوله : « ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، الا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظاً الا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجـرى　　　فأترك ما أريد لمـــا يريد

وقول من قال :

فما لجرح اذا أرضاكُمُ ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما نسمح نفسه بأن يشـــاطر محبوبه فى نصف ماله ، أو فى ثلثـــه ، أو فى عشره • فمقادير الأموال موازين المحبة ، اذ لا تعرف درجة المحبوب الا بمحبوب يترك فى مقابلته فمن استغرب الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه شيئا » •

المـال هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود ، وقد أفصح عن ذلك الغزالى ، وان سبقه قول جميل :

سلينى مالى يا بثين فانما يبيـن عند المال كل ضنين

حق الأخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالى للمحبة • لا نرانا فى حاجه الى اجمال ما فصله من حقوق الاخوة ، ويكفى أن نذكر انه يرى للاخ حقا على اخيه : فى نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؟ ولكل حق من هـذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوى عليه الصدور من حب قـوى او ضعيف •

حقوق الأخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالى فى حقوق الأخ المذنب ، فانه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو فى الوقت نفسه كثير على عصر كالعصر الذى عاش فيه الغزالى ، فلسنا نجهل أن الناس كانوا اذ ذاك قليلى التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالريب والظنون •

يرى الغزالى أن الصداقة لحمة كلحمة النسب • والقريب لا ينبغى أن يهجر بالمعصية • فقد قال تعالى للنبى فى عشيرته : « فان عصوك فقـل انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ، ولحمة النسب • قال الغـزالى « ومن حيث أن الاخوة عقـد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقـد • ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره • وفقر الدين أشد من فقر المال• وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به ، فالأخوة عدة للنائبات ، وهذا من أشد النوائب » •

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : ان مقـــارف المعصية لا تجــوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء • لأن الحكم اذا ثبت بعلة فالقيـاس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية • وقد أجاب بأن المعصية انما منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لانه لم يتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقـــد ثبتت أخـوته ، فلا تسقط بالمعصيه ، كما لا تسقط القرابة ، ومتى بقيت فقد بقى ما كان لها من الحقوق •

ويزيد الغزالى أن مصــاحبة الفاسق خير من مجانبتــه ، اذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والاقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافاة، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد •

وهذه عظة بالغة ، لاولئك الذين كلما رأوا مبطـلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

- ١٦ -

البغض فى الله

يقول الغـــزالى : « كل من يحب فى الله لا بد أن يبغض فى الله ، فانك ان أحببت انسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فان عصاه لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده » ولكنُ البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة •

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله اما أن يكون مخـالفا فى عقـده أو فى عمـله ، والمخالف فى العقد اما مبتدع أو كافر ، والمبتـــدع اما داع الى بدعته أو ساكت ، اما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة : ـ

الاول ـ الكفر والكافر ان كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق، وان كان ذميا فلا يجوز ايذاؤه الا بالاعراض عنه والتحقير له •

الثانى ـ المبتدع الذى يدعو الى بدعتـه • فان كانت البدعة بحيث يكفر بها فامره اشد من الذمى • لانه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمه • وان كان مما لا يكفر به فامره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الامر فى الانكار عليه اشـد منه على الكافر ، لان شر الكافر غير متعد • أما المبتدع الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعـو اليه حق فهو سبب لغـوايه الخلق وسره متعد ، فالاستحباب فى اظهـار بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفـير الناس منه ، أشد •

الثالث ـ المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يخـاف الاقتداء به ، فأمره اهون • والاولى أن لا يفاتح بالتغليظ والاهانة ، بل يتلطف به فى النصح ، فان قلوب العوام سريعة التقلب •

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الأول ـ وهو أشدها ، ما يتضرر به الناس فى دنيـاهم ، كالظـلم، والغصب • وشهادة الزور ، والغيبة • والنميمة ؟ وهذه معاص شديدة ، لأنها ترجع الى ايذاء الخلق • وأصحاب هـذه المعاصى ينقسمون الى من يظلم فى الدماء ، والى من يظلم فى الأموال ، والى من يظلم فى الأعراض، بعضها أشد من بعض ، والاستحباب فى اهانتهم ، والاعراض عنهم مؤكد جدا •

الثانى ـ ما يتضرر به النـاس فى أخراهم لا فى دنياهم ، كعمل صاحب الماخور الذى يهيىء أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخـلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه •

وأنا لا أفهم كيف يرى الغزالى أن هـذا العمل لا يضر الناس فى دنياهم[1] •

الثالث ـ عمـل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمـر ، أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه • والامر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه ان صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف •

نتيجة

ويحسن بالقـارىء أن يضم الحب فى الله ، والبغض فى الله ، الى ما قرره الغزالى من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الأبواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لمـا يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالى •

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليـه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصـلاح الافراد ، فيهذب نفسه أولا ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس الى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وباخوانهم فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من بغض من العقيدة ، أو يظـلم الناس • وقد فصل الغزالى ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والاحاديث والاخبار •

- ١٧ -

آداب الزواج

يسميها الغزالى آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لان النكاح

---

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدنيوية من الأمراض الفتاكة كالزهرى ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره الى أكثر من الضرر الدينى لأنه هو الماثل أمامه

عبد الوهاب النجار

فى كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وانما يقصد به العقد • ولكنا قلنا آداب الزواج ، مجاراة للعرف الحديث •

وقد وضع الغزالى عدة آداب للنكاح ، تعد فى الواقع ترغيبا فيه ، وهى فى جملتها من الآداب العادية • ويهمنى منها أدب واحد ، أصاب الغزالى فى الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش • فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هى مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الاهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى اصلاحهن ، وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فانها رعاية وولاية ، والاهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم • وانما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها • والا فقد قال عليه السلام : « يوم من وال عدل أفضل من عبادة سبعين سنة » • ثم قال : « ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » وليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه واراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله • ولذلك قال بشر : فضل علىّ أحمد بن حنبل بثلاث : احداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره• وقد قال عليه السلام : « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته » •

ويقرر الغزالى بعد هذا أن فى الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسراً للغضب ، وتحسينا للخلق • ويذكرنى هذا الادب بما يكرره سيدى الاستاذ الدكتور منصور فهمى فى رسائله من كلمة « غرم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما فى الحياة من متاعب ، فى سبيل مافيها من الطيبات • والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الامور • والشبان الذين ينفرون من الزواج ايثارا للراحة ، انما هم جبناء ، ضعفاء، لا يصلحون للجلاد فى ميدان الحياة •

- ١٨ -

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالى فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس• لأن في ذلك بيانا لرأيه فى احترام ما يلزم المرء من مختلف الحقوق • وقد بدأ الكلام فى هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عند أخيه مظلمة فى عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم) •

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله • ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته • وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله • لئلا يقارف بريائه معصية جديدة •

مظلمة المال

وان كانت المظلمة فى المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر فى مصرفه •

فان كان الحرام معلوم العين : من غصب ، أو وديعة ، أو غير ذلك ، فأمره سهل • وان كان متلبسا فلا يخلو أمره من أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، أو أن يكون فى أعيان متمايزة : كالعبيد والدور والثياب •

فان كان فى المتماثلات ، أو كان شائعا فى المال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها بالمرابحة ، وصدق فى بعضها ، أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فى الحبوب والدراهم

والدنانير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا • فان كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف • وان أشكل فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء •

وفي الأعيان المتمايزة : كالدور والعبيد ، يوزع القاضي الثمن بقدر النسبة • وان كانت متفاوتة ، أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور مثلا، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويقدر التفاوت بالعرف •

صرف المال الحرام

فاذا أخرج الحرام فلا يخلو أمره :

(أ) اما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف اليه أو الى وارثه. وان كان غائبا فينتظر حضوره • وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده الى وقت حضوره •

(ب) واما أن يكون لمالك غير معين ميئوس منه لا يدرى أمات عن وارث أم لا • فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه • فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده ان كان فقيرا • ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة ، فانه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؟ وان قدر فكيف يفرق دينارا واحدا على ألف أو ألفين •

(حـ) واما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك الى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها عامة المسلمين •

مظلمة النفس

وان كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ، فان كان خطأ فليسلم الدية ، وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص وله أن

يتعرف الى ولى الدم ويحكمه فى روحه ، فان شاء عفا عنه وان شاء قتله •
وقد تنبه الغزالى الى أن هناك ذنوبا يجب أن تستتر ، فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن فى اظهاره جناية جديدة • والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والاحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان فى الاحسان جبرا للاساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب فى مثل هذه الحال •

- ١٩ -

واجب الاحتساب

الحسبة والاحتساب فى عرف المسلمين عبارة عن الامر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله • لقوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويامرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره • واذ كانت القدرة شرطا للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لانهم أقدر من غيرهم • ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل الى انكاره ، والمعروف المتروك ليأمر باقامته ، وكان لكل مسلم الحق فى أن يستعديه فيما يجب انكاره •

ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وان لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضى أن يتعرض لذلك الا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه • وأنه يجوز للمحتسب أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضى غير فحص القضية بالأناة والوقار •

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، وأحكام المظالم ، فى الحكومات الاسلامية ، فلنكتف بهذا القدر، تمهيدا لرأى الغزالى فى شروط الاحتساب .

شروط المحتسب

ولا يجب على امرىء فيما يرى الغزالى أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، الا بالشروط الآتية :

أولا — أن يكون مكلفا . فلا يجب على الصبى أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه .

ثانيا — أن يكون مؤمنا . ومفهوم أن الغزالى لا يعترف للجاحد بشىء حتى يصلح للارشاد .

ثالثا — أن يكون عدلا . ويناقش الغزالى هذا الشرط ، ويذكر أن الأنبياء قد اختلف فى عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ، فلو اشترطنا فى الارشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصى لأغلق هذا الباب .

رابعا — أن يكون مأذونا من الامام والوالى . وقد ناقش الغزالى هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب باذن الوالى بعد اطلاقه فى الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه يجب على المرء زجر العاصى أينما رآه ، وكيفما رآه .

خامسا — أن يكون قادرا . فليس على العاجز حسبة الا بقلبه . ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروها يناله ، فذلك فى معنى العجز ، وكذلك اذا لم يخف مكرها وعلم أن انكاره لا ينفع — وقد اختلفت كلمة الغزالى فى هذه النقطة ففى ص ٣٢٢ ج ٣ من الاحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها

لا تفيد • وفى ص ١٥٣ ج ١ يقول فى النهى عن كشف العورة فى الحمام « فاما قوله : اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهـذا لا يكون عذرا ، بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرىء عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالمعاصى • وذلك يؤثر فى تقبيح الامر فى عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه » •

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : ان المكروه المتوقع ما حده الانسان • فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة ، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه فى حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف الا ويتوقع منه نوع من الأذى ، وقد يكون منه أن يسعى به الى سلطان ، أو بقدح فيه فى مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذى يسقط الوجوب به ؟

وأجاب الغزالى بأن الحسبة لا تسقط الا بالمكروه الظاهر كمن يعلم أنه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به ، أو يعلم بأنه تنهب داره ، ويخرب بيته ، وتسلب ثيابه [1] •

المنكر المنهى عنه

ولا ينهى عن شىء فيما يرى الغزالى الا بالشروط الآتية :

أولا ــ أن يكون منكرا ، أى محذور الوقوع فى الشرع • قال الغزالى « وانما عدلنا عن لفظ المعصية الى هذا ، لأن المنكر أعم من المصية، اذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا ان رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه • ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة فى الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبيات ، كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنه » •

---

(١) انظر ص ٣٢٣ ج ٢ احياء •

ثانيا ـ أن يكون المنكر موجودا في الحال ، فلا حسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته .

ثالثا ـ أن يكون المنكر ظاهرا . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ما ستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته .

رابعا ـ أن يكون المنكر معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالى لحرية الرأى والتفكير ، وما أحوج المصلحين الى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب .

قال الغزالى : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات ، وان فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها » [1] .

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ، وانما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس .

---

(1) ص ٣٢٧ ج ٣ احياء .

انواع المنكرات

قسم الغزالى المنكرات الى مكروهة ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام الا اذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم فى الشرع يجب تبليغه الى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام •

ثم ذكر طائفة من المنكرات التى تجرى فى المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة • وآراؤه فى هذا الباب مسددة ، ترجع الى الحرص على سلامة الناس فى دينهم ومعاشهم ، واصلاح ذات بينهم • فمنها دعوته الى منع ما يؤدى الى تضييق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته الى منع الملاك من تحميل الدواب ما لا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان • ودعوته الى منع الاسراف فى الطعام والبناء • والذى يتأمل ما سرده الغزالى من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف فى نفوس الأفراد والجماعات •

درجات الاحتساب

للاحتساب درجات ، وهى :

(١) التعريف (٢) ثم النهى (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم ايقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود •

وفى الدرجة الأخيرة يقول الغزالى : « وربما يستمر الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك الى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا • فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه الى اذن الامام • فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدى الى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب

البلاد • وقال آخرون : لا يحتاج الى الاذن • وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الامر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوالث ، وقد ينتهى لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون • فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه » ص ٣٣٦ ج ٣ •

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الأمراء والسلاطين ـ فيما يرى الغزالى ـ الا الرتبتان الاوليان وهما التعريف والوعظ • أما المنع بالقهر فليس لآحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر •

وأما التخشين فى القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ، وما يجرى مجراه ، فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم يجز ، وان كان لا يخاف الا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب اليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد •

الباب الحادى عشر

فى تأثير الغزالى فى عصره وما تلاه من العصور

أثر الغزالى فى عصره أثرا غير قليل : فشطر أهل العلم ، والولاة، شطرين : أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال الفريقان يختصمان حتى طيرا شهرته فى جميع الآفاق •

وقد رأى الغزالى فى حياته من يقدسه ، ويقدمه على جميع العلماء ؛ ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الاقطار الاسلامية ، رميا لها بالدعوة الخفية الى الكفر والالحاد !

- ١ -

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته :

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة ... وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم الى مقامه ... وينصر السنة فى كلامه
وأن يكون جامعا لكل فن ... وأن يعم علمه أهل الزمن

وأن يكون فى حـــديث قدروى   من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهـور   قد نطق الحـديث والجمهـــور

وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الاولى عمر بن عبد العزيز ومبعوث الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة الاسفراينى أو الصعلوكى أو الباقلانى . ويتفقون على أن مبعوث المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك :

والخامس الحبر هو الغـزالى   وعده ما فيه من جدال [1]

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما ترتكز عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارىء أن الغزالى بذ معاصريه ، وأخملهم، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

- ٢ -
المنامات والاحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لغـير واحـــد من المنامات المتشابهة فى تأييد الغزالى ، ونشر فضله .

فهذا السبكى يذكر فى طبقاته أنه كان فى زمانه شخص يكـره الغزالى ويذمه ويعيبه فى الديار المصرية ، فرأى النبى صـــلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجانبه ، والغزالى جالس بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم فى ! وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا السياط ، وأمر به فضرب لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكى ويحكيه للناس (! ؟) .

---

(١) راجع شرح الزبيدى ص ٢٦ ج ١ .

ويذكر السبكى أيضا أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الاحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا فى بلاد المغرب ، فأمر باحضار كل ما فيها من نسخ الاحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب الى النواحى ، وشدد فى ذلك ، وتوعد من يخفى شيئا منه ، فأحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على احراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم فى المنام كأنه داخل من باب الجامع الذى تعود الدخول منه ، فرأى فى ركن المسجد نورا ، واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما جلوس، والامام أبو حامد قائم وبيده الاحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمى ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما الى أن وصل الى النبى صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الاحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفا لسنتك كما زعم ، تبت الى الله تعالى ، وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة الى آخره ، ثم قال : ان هذا شىء حسن ، ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يا رسول الله انه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر : فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من ثيابه : وضربه حد المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يا رسول الله ، انما حصل ذلك منه اجتهادا فى سنتك وتعظيما • فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريبا من الشهر متألما من الضرب ، ثم سكن عنه الالم ، ومكث الى أن مات ، وأثر السياط على ظهره (؟!) •

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدى رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالى، وهو منام طويل نقله السبكى

في طبقاته • وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هـــذه المنامات ، ثم بدا لى أن اقتصر على ما ذكرت رغبة فى الايجاز •

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغــزالى من أصــحاب الكرامات ، كما نوّه بذلك مترجموه ، كلا ! وانما اتخذها دليلا عــلى ما وصلت اليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فان لما يراه المــرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ؛ وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ ، وعلى الاخص اذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الاولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الاحياء ، وسبحان من جلّ عن الشريك ! •

- ٣ -

تلامذة الغزالى وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم فى عصره ، تلامذته وأصـــحابه : فهم فى علمهم ، وأدبهم ، أثر من آثاره • وقد أثر الغزالى تأثيرا حسنا فى جمهور كبير من تلامــذته وأصـحابه ، ذكرهم الزبيدى ، منهم القاضى أبو نصر أحمد بن عبد الله الخمقرى (نسبة الى خمس قرى التى تعرف بســيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام أبو الفتح أحمـــد ابن على بن محمد بن برهان ــ بفتح الباء ــ ولد ســنة ٤٧٦ وتوفى سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن القاسم الطوسى توفى سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقانى قتل فى مشــهد على بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ فى واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن تومرت المصمودى الملقب بالمهــدى صاحب دعوة ســلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك المغــرب ، دخـــل الشرق وتفقه عــلى الغزالى • ومنهم أبو حامد محمــد بن عبــد الله بن محمــد الجوزقانى

الاسفراييني • ومنهم أبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى حدث بكتاب « الجام العوام » للغزالى عنه • ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، تفقه عليه وشرح كتابه « البسيط » •

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وانما أنص هنا على أن تلامذة الغزالى أحدثوا أثرا كبيرا فى الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، الا أثرا لقوتهم المعنوية ، وايمانهم بما يدعون اليه • وأنص أيضا على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه غالبا الا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الاصول ، وانما صحبوه على أنه داع الى الله ، ومرشد لمكارم الاخلاق •

- ٤ -

مؤلفاته وفتاواه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الاسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته وفتاواه • فانا نجد مثلا كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحا كما قال الزبيدى ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبيا لكان معجزته الوجيز ! وممن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وأبو الثناء محمود ابن أبى بكر الأرموى • والعماد أبو حماد بن يونس الاربلى وأبو الفتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى ، وقد اختصر النووى من شرح الرافعى كتابا سماه الروضة ، وخرج أحاديثه ابن الملقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنتقى • ولخصه أيضا الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضا البدر الزركشى ، والبدر ابن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى •

ونجد أيضا كتابه « الوسيط » فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن

يحيى النيسابورى شرحا سماه « المحيط » فى ستة عشر مجلدا ، وشرحه نجم الدين أحمد بن على بن الرفعة فى ستين مجلدا وسماه « المطلب » وشرحه النجم القمولى وسماه « البحر المحيط » ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الاحياء .

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسى يمدح كتبه الأربعة فى الفقه :

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه « المستصفى » فى الأصول موضع عناية العلماء ، فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشبيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ . وشرحه أبو على الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغرناطى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ .

ونجد كتابه « تهافت الفلاسفة » قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتابا فى نقده ، ومقام ابن رشد فى عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى سنة ٨٩٣هـ ، وألف كتابا فى التحكيم بين الغزالى وابن رشد باشارة السلطان محمد الفاتح العثمانى . ووضع علاء الدين بن على الطوسى كتابا فى المحاكمة بين الغزالى وابن رشد سماه « الذخيرة » ومنه نسخة بدار الكتب المصرية نمرة ١٧٤ .

ونجد كتابه « قواعد العقائد » شرحه ركن الدين الاسترابادى ومحمد أمين بن صدر الدين الشروانى .

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضنون به على غير أهله) الى الغزالى . وممن بحث ذلك السبكى وصاحب « تحفة الارشاد » وصنف

أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى المتوفى سنة ٧٥٠هـ كتابا فى رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفى ما دس عليه •

وليست عناية العلماء بفتاواه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التى كان يعظ بها الناس فى بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد المتفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية) •

ولو رجعنا الى ما ألف فى الوعظ والفقه فى الأعصر الأخيرة لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون الى الغزالى فى أكثر الأبواب •

وقد أخبرنى صديقى عبد القوى أفندى الحلبى أن من النادر أن تنشأ مكتبة فى أى قطر من الأقطار الاسلامية ، ولا تشتمل قائمتها على طائفة من كتب الغزالى فى الفقه والأخلاق •

- ٥ -

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته فى الفقه وبين تأثرهم بما كتب فى الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا أن الروح السائد فى ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ، لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالى انما كان أثراً لايمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيرا فى الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب فى الحساب والنجوم •

أضف الى هذا أن الغزالى نفسه كان يُعنى بالفقه والتوحيد فى مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءا أو مقدمة لعلم الأخلاق •

والذين عنوا بنقد كتبه انما التفتوا أيضا الى الوجهة الأخلاقية ؛ فالقضاة منهم كانوا يرونه خطرا على الأخلاق ، لأنه يجانب الشريعة ، وهى فيما يرون أساس الأخلاق • والفلاسفة منهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلميهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتى على تلك القواعد باذاعته وساوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا يحذرون •

- ٦ -

تأثير الاحياء

ولئن قالوا فى « الوجيز » ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريبا منه فى مؤلفاته فى الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فان أبعد كتبه أثرا ، وأسيرها ذكرا ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه « احياء علوم الدين » بلا جدال •

كتب الغزالى فى الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه الا بمقدار ، فلم يثر فتنة • وكتب فى المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير الابانة والايضاح • وكتب فى الأصول ، ولكن بحيث لا يثير الخصومة ، ولا يهيج اللدد • وكتب فى الفلسفة • ولكنه لم يزد على أن تغنى بليلى معاصريه • وكتب فى التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة الا قليلا ، فظل مستور الحال •

وما كتب « الاحياء » حتى التفت الناس اليه من كل جانب ، وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقاً اليه أو عتباً عليه، أو بغضاً له ، أو رفقاً به • وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة، وهو حى يرزق • وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب يوضح فيه ما غمض فى الاحياء ، وهو « الاملاء على اشكالات الاحياء » ولكنه فى الواقع لم

يزده الا اشكالا الى اشكال • فلج الناس فى المراء فوضع كتابه «المنهاج» على أن يكون موضع وفاق ، فكان فى الواقع أيضا ضغثاً على ابالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصـــومة التى كانت بين أنصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فان أنصار الغزالى جميعا صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعا من علماء الشريعة • وأبعدهم غورا فى النيل منه هم المتصدرون للفتيا والقضاء •

فبينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهذيان) نجد أبا الحسن الشاذلى يذكر أنه رأى النبى صـلى الله عليه وسـلم فى منامه وقد باهى موسى وعيسى بالغزالى • وقال : أفى أمتيكما حبر كهذا ؟ فقالا • لا ! ونجد أبا العباس المرسى يشـهد له بالصـديقية العظمى ! وليت شـعرى ماهيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهذيان وبين من يحلم بأن لا نظير له فى أمة موسى وعيسى عليهما السلام •

وقد قدمت لك شيئا من المنامات المتعلقة به ، وبينت مالها من أسباب، وأزيد الآن أن كل هـــذه المنامات مسببة عن « الاحياء » فهى تارة تقـع لناقدى ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمنتفعين به من علماء الاسلام •

والذين أحرقوا « الاحيـاء » لم يحرقوه لأنه كتاب هين ؟ والذين ألفوا الكتب فى نقده ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هين ؟ وانما نقده هؤلاء، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطر ، وليكن خطرا على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنة ، وليكن كتلة زندقة والحاد ، فهـو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن •

وأشـهر من نقد « الاحياء » الامام أبو عبـد الله المـأزرى المالكى

المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكى فى طبقاته ، فليرجع اليه من شاء، ويتلخص نقد المأزرى فى أن الغزالى غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات) ويتلخص رد السبكى فى رمى المازرى بالحسد والكيد للصوفية فى شخص الغزالى ، وممن نقده أبو الوليد الطـــرشوشى وتجد جملة من نقده فى الجزء الأول من شرح « الاحياء » للزبيدى • فأما الذين كتبوا فى فضل الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه : « تعريف الأحياء ، بفضائل الاحياء » وفى أيدى النـاس كتـاب لبعض الفضلاء اسمه : « بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين » •

وأطال السبكى فى مدحه حتى نقـل عن بعض المحققين أنه قال : « لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى » ثم قال : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها واشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلما ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به فى الحال •

ويدل على مبلغ تأثير « الاحياء » عناية العلماء به ، فانا نجد الحافظ العراقى خرج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجـلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره فى مجلد وسماه « المغنى عن حمل الاسفار » • ثم اتى تلميـذه شهاب الدين بن حجـر العسـقلانى فاستدرك عليه مافاته فى مجلد • وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : « تحفة الأحياء فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء » وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الأحاديث الموضوعة •

وممن اختصر « الاحيـاء » أبو الفتوح أحمـد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه « لباب الاحياء » وأحمد هذا هو أخو الغزالى • ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢هـ• ثم محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى بن أبى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر

ابن عثمان البلخى وسماه « عين العلم وزين الحلم » (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية)• واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه «لباب الاحياء» واختصره الشمس محمد بن على بن جعفر العجلونى المشهور بالبلالى شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة ٨٢٠ هـ

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : « منهاج القاصدين » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ •

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من الصفحات ، ألفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى تحقيق كثير من مواطن الخلاف •

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى الاحياء ، وهى : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » وممن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعرانى ، وعبد الكريم الجيلى ، ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ، وأحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى • ووضع ناصر الدين بن المنير الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : « الضياء المتلالى ، فى تعقب الاحياء للغزالى » وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السمهودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزبيدى • وألف البرهان البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها « تهديم الأركان » وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها « تشييد الأركان » •

- ٧ -

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تتبعت العصور التى تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع بمؤلفاته ظاهرا كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف والأخلاق•

ولقد رأيت من بينهم من هم يحفظ كتاب الاحياء عن ظهر قلب • ورأيت منهم من كان يتقرب الى الله بنسخ هذا الكتاب • وتجد فى ص ٦٩ ج ٣ من « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » مظهرا لأثر الغـزالى فى ذلك العصر ، اذ تجد من العلماء من يتخذ ورداً من الاحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولولا خوف الاطالة لضربت للقارىء عشرات الأمثال •

وفى العصر الحـاضر يدرس كتاب الاحيـاء فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخـلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب •

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائما بالانتفـاع بكتاب الاحياء • وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطىء وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضا سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب « سبيل السعادة » الذى وضعه الأسـتاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهـم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق صدره، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء فى الأزهر مجردا من آراء المفكرين فى نقده ، وتمييز غثه من سمينه ، كانت السبب فى افساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها الى الطمع فى أنتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين •

والأمل كبـير فى أن يصل هـذا الصوت الى من بيدهم الأمر فى

الازهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الأخلاق، فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك المذاهب البالية ، التى يعولون عليها فى فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا واياهم سواء السبيل !

- ٨ -

عناية الأجانب بالغزالى

ومما يتصل بتأثير الغزالى فى الحياة العلمية ، عنـاية الأجانب به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنســوية ، والانجليزية ، والألمـانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده الدكتور زويمـر واحدا من أربعة ويقول : « كل باحث فى تاريخ الاسلام يلتقى بأربعـة من أولئك الفطاحل العظماء. وهم محمد نبى المسلمين نفسه، والبخارى، والأشعرى ، والغزالى » .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقليـة الشرقية ، وكتابه عن الغزالى من الكتب القيمـة ؛ وتجد فيه من مظهـر العناية بالغزالى ما كتبـه عن قبره ، نقـلا عن خطاب وصـله من القس دونالدسن فى ١٧ يناير سـنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغـزالى ووجد فى احدى زوايا الحجر كلمة (غزالى) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبوحامد. وهذا هو الرسم الذى أرسله قس دونالدسن الى الدكتور زويمر عن قبر الغزالى .

ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالى كتاب Carra de Vaux والمسيو « كارادى فو » هذا رجل خبير بالحياة الاسلامية ، وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطـلع عليه من يود أن يعـرف شيئا عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وانى لآسف حين أقرر أن المستشرقين يفهمون

مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفا وضع كتابا عن الغزالى ، وانى لملوم فى أن غفلت عن هذا الكتاب ، فان الطريقة التى جرى عليها المسيو كازانوفا فى كتابه « محمد ونهاية العالم » طريقة تغرى الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضا على أن الظروف لاتسمح بأن أترجم شيئا من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمى عنده فوق كل مقام . وانما أدعو من يحب الاطلاع الى مراجعة Mohamed et la fin du monde فان فيه من المباحث ما يواتى شهوات العقول ، وللعقول شهوات !! .

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التى وضعها المسيو Lucien Gautier حين نقل « الدرة الفاخرة » الى الفرنسوية Traité d'eschatologie musulmane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة السابعة من Journal asiatique وفى مقدور القارىء أن يرجع الى Encyclopédie de l'Islam 20 Livre اذا أراد أن يعرف ما كتب عن الغزالى بالفرنسوية والانجليزية والألمانية . وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه علم أن فى اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالى . وأحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء .

وأحب أن يعفينى القارىء من تفصيل ما أعرف عن نظر المستشرقين الى الغزالى ومذاهبه الصوفية ، فانى مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع .

وبالرغم من تأثير الغزالى فى الشرق والغرب ، وتغلغله فى أعماق الحياة العلمية ، فان الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه فى الأخلاق. ولكن سيكون الفوز للحياة .

ألا ان الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحياة من قوانين ، كذلك تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما فى الحياة من عناصر وأصول .

وهكذا انهزم الغزالى حين نازل الحياة !

حرم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت فى طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير !

وحرم الغناء . ولكن مشت الأذواق فى سبيلها بقوة ، ولم تزل ظامئة الى الأنغام والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عللاً معقولة ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحيينا تهاويل الصور ، ولم نفكر فى الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف أفندى البنا وابراهيم أفندى القبانى والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر فى الخمر ، ولا فى مجالس الخمر !!

ليست الأخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التى تبنى بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالى من التواضع ، والتوكل ، والخمول ، وانما هى فهم قوانين الحياة وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندى غاية الأخلاق .

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل

حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية فى سبيل الحياة • فقد يكون الخمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحيانا من أسباب الخمول •

ولا قيمة للحياة بغير القوة • فيجب أن تكون الأخلاق بابا الى الحياة القوية • وطالما شككت فى قوله عليه السلام : « اللهـم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا • واحشرنى فى زمرة المساكين » !

الباب الثانى عشر

فى أنصار الغزالى وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مثارها الفرق بين الفقه والتصـوف ، وأن أنصار الغزالى كانوا فى الأغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا فى الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن نقفك على ترجمة طائفة من أنصار الغـزالى وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئا مما اختص به أولئك العلمـاء الذين حاربوا الغزالى أو أيَّدوه ، لنمهـد لك السبيل الى فهم الحركة العقلية التى أوجدتها مؤلفات الغزالى ، وسبيلنا الايجاز فى هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد فى قـرطبة سنة ٥٢٠هـ ١١٢٦م . ودرس فى صـــغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلســـفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الأقاويل . توفى رحمه الله بمراكش فى أوائل سـنة ٥٩٥ هـ بعـــد أن ذاق الأمَرَّين من نفى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذى يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى ما لقيـــه فى زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يُحتضَرون، وأن دولتهم كانت تمشى الى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحـرار ، لا يصلحون مطلقا للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل .

وخصومة ابن رشد للغزالى تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالى

كتابا سماه « تهافت الفلاسفة » ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، والذى يهمنى من معارضة ابن رشد للغزالى انما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد كان الغزالى يراهما من الكفار •

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوثه التى كانت مثار الخلاف ، انما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف فى التسمية وبخاصه عند بعض القدماء • فان هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين • وقد اتفقوا فى الطرفين واختلفوا فى الواسطة• اما الطرف الاول فهو موجود وجد عن شىء ومن شىء ، اى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هى حال الاجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات• وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث • وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان • وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله • وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شىء أى عن فاعل ، وهذا هو العالم باسره • والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين يسلمون بان الزمان غير متقدمعليه لأن الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والاجسام ، وهم أيضا متفقون مع القدماء على ان الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل • يقول ابن رشد : « فهذا الموجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم • فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما • ومن غلب عليه ما فيه من

شبه المحدث سماه محدثا ٠ وهو فى الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا ٠ فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فان الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة » ٠

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل الى كلام هو فى الواقع صفع لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من الأمور الهينة التى يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق !! واليك ما يقول فى ذلك:

« مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر فى الآيات الواردة فى الانباء عن ايجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ٠ وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعنى غير منقطع ٠ وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) ٠ يقتضى بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان ، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركة الفلك ٠ وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ٠ يقتضى بظاهره وجودا ثانيا بعد هذا الوجود ٠ وقوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان) ٠ يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شىء » ٠

وهناك صفحة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد ٠ ذلك بأن هؤلاء القوم يختلقون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر ٠ «فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » ؟!

واليك مايقول ابن رشد فى ذلك :

« والمتكلمون ليسوا فى قولهم أيضا فى العالم على ظاهر الشرع ،

بل متأولون ، فانه ليس فى الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبدا ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء • ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة اما مصيبين مأجورين ، واما مخطئين معذورين فان التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم فى النفس هو شيء اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، واذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر » •

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة بل أسرفوا فى تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والايمان • وفى كتاب « فيصل التفرقة » للغزالى مظهر لهذه الآراء الفاسدة التى ظنها الأولون حقائق ، وهى فى الواقع أباطيل •

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد فى الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا فى غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد • وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين •

ابن تيمية

ولد بحرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ • وقدم به والده الى دمشق فى سنة ٦٦٧هـ حين استولى التتار على حران • وقد تلقى

عن والده الفقه والأصول، ثم عنى بالنظر فى الحساب والجبر والفلسفة، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين • وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف • منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح فى الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية ••• الخ •

قال الحافظ ابن كثير : وفى رجب سنة ٧٠٤هـ راح الشيخ تقى الدين بن تيمية الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك • فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما • وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة • وكذلك بكلامه فى ابن عربى وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم يبال بمن عاداه • ولم يصلوا اليه بمكروه • وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا بمصر ولا بالشام •

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابة	لم يطعن الأعداء فىَّ ويقدحوا
كالليث لما هيب خط له الزبى[1]	وعوت لهيبته الكلاب النبَّح
يرموننى شزر العيون لأننى	غلست فى طلب العلاء وصبحوا

وقد توفى رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ وهو فى السجن • فأخرج الى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتى ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفا • ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردى •

---

(١) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة •

والذى يعـــود الى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عنى مؤلفـوها بترجمته يعرف كثيرا عن العقلية الاسلامية فى القرن الثامن ، ويكفى أن نلفت القارىء الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فان لذلك معانى لاتغرب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد .

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاســـلام ، ولكنه لا يخـلو من سذاجة . فانك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر . وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم [1] » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول .

ويعد ابن تيمية من خصـــوم الغزالى لأنه كتب فصــــولا كثيرة فى تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى أخريات أيامه ، وفى ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه » .

وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغـــزالى كان متقلبـا فى آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفى ، وتارة فيلسوف .

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولى على النبى ، كما رأى من الفلاســفة من يفضل الفيلسوف على النبى . فانا نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبى على الفيلسوف ، ويســمى طريقه

(١) أنظر مقدمة رفع الملام .

طريق العقلاء ، ويذم الفارابى لأنه يفضل الفيلسوف على النبى ، ويسمى طريقه طريق الغلاة • ويذم محيى الدين بن عربى لانه كان يدعى آنه كان يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى النبى ، لان الملك على أصلهم هو الحال الذى فى نفس النبى ، والنبى فى زعمهم ياخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبى لأنه لا يحتاج الى وسيط •

وأحب أن أنبه القارىء الى أنى انما أذكر تاريخ فكرة من الأفـكار الاسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول •

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية • ولد فى سنة ٥٧١ هـ• وتوفى سنة ٦٩١هـ لقى فى حياته ضروبا من الشـــدة بسبب آرائه الحرة • فقد حبس مدة لانكاره أن تشد الرحال الى قبر الخليل • وقد حبس مع ابن تيمية فىالمدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه الا بعد موت أستاذه • وله عدة تصانيف • منها «مدارج السالكين » ، و «شرح أسماء الكتاب العزيز » ، و«نقد المنقول» ، « والمحك المميز بين المردود والمقبول » ، و « أعلام الموقعين » ••• الخ •

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالى ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الاحياء ، فلا نعود اليها الآن •

وأكرر ما قلته من أننى أوجز كل الايجاز فى هذا الباب • فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هى غاية فى الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون فى الاحتياط ، لأن العـالم الاسلامى كان يضـــطهد الفلاسفة اذ ذاك • ولو سـمح لنا الدهر بوضع كتاب فى الفلسفة الاسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفـذاذ آصـار الخمول •

السبكى

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ • والسبكى هذا من كبار المؤلفين • وكتابه « جمع الجوامع » فى الأصول يدل على كده وكدحه فى سبيل العلم ، وان كان غاية فى اللبس والغموض • وكتابه « طبقات الشافعية الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب • وعيب السبكى يرجع الى ضعفه فى النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التى اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير •

ويعتبر السبكى من أنصار الغزالى ، وقد كتب عنه فى الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه • وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الاحياء لكفى !! وما أريد أن أطيل فى الكلام عن السبكى ، فقد عرضنا له عدة مرات •

الزبيدى

هو محمد بن محمد الحسينى الزبيدى • وهو من علماء القرن الثانى عشر ، وقد وضع شرحاً مطولا للاحياء فى عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ • وفى هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالى •

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف ، لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل • من ذلك قوله فى تأييد ما يراه الغزالى من أن الزواج ميل الى الدنيا :

« وأما كون التزويج من جملة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه فى الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل الا بالوقوع فى الآفات التى كان

عنها بمعزل أيام عزوبته ، لا سيما ان كان متجردا عن القيام بالأسباب التى تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن انيه بلقمة أو خرقة أو غيرهما فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن اليه » .

وهذا كلام غير مفهوم فى الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعا عن رأى يرى الناس أنه غير صواب .

الباب الثالث عشر

فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين

هذا باب اذا أطلته طال ، لأن لآراء الغـــزالى أشـباها كثيرة ، فى الفلسفة الحديثة ، وتحملنى الرغبة فى الايجاز على الاكتفاء بأهم وجـوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين • وحسبى أن أدل القارىء على كيفية السير فى هذا الطريق •

- ١ -

الغزالى وديكارت Descartes

أقرب الفلاسفة شبها بالغـــزالى هو « ديكارت » لأنه ارتاب كمـا ارتاب الغزالى ، وبقى فى شكه وارتيابه زمنا غير قليل •

ولد « ديكارت » فى لاهاى سنة ١٥٩٦ م أى بعـد الغزالى بنحـو ٥٣٠ سنة • تلقى العلم فى مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت • ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع فى يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه • ورحل الى باريس فى السادسة عشرة من عمره ، وتطوع فى الجندية ، وعمـل عدة سياحات فى ألمانيا ، والسويد ، والدانيمارك ، ثم استقر فى هولنده ، حيث رأى الاقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحـرية لم تسمح بها فرنســا اذ ذاك •

وبعد أن أقام فى هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، فقضى نحبه فى سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة فى ستوكهلم ثم حملت جثته الى فرنسا فى سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة Saint-Etienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت فى نظر مؤرخى الآداب الفرنسوية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيس لغة فلسفية ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية • وأهم مايعنينا من مؤلفاته •

أولا — Règles pour la direction de l'esprit

ثانياً — Discours de la méthode

ثالثاً — Méditations métaphysiques

رابعاً — Les principes de la philosophie

خامساً — Les passions de l'âme

ففى هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية • فليرجع اليها من شاء ، فانه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية •

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالى حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس فى الأكثر اما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، واما أن يكونوا أقوياء

فيسرعوا الى الحكم ثقة بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون الى سواء السبيل •

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه فى أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية ، فى التفرقة بين أخلاق الشعوب •

وأهم ما تنبه له فى رحلاته ، الشك فى قيمة الرأى العام ، والاستهانة بكثرة الاصوات • لأن اجماع الامة على رأى ، لا يدل على أنه رأى الأمة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حُملت عليه الامة لسبب من الاسباب •

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتياب ، اذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق الا وقد قال به فيلسوف •

ولكن ديكارت كان فى ارتيابه أصرح من الغزالى • فبينما نجد الغزالى يحدثنا بأنه دام قريبا من شهرين على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » أى أنه لم يكاشف الناس بشكه الا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنها حقة ، وبوجوب التخلى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديدا على أساس جديد •

ونرى الغزالى شك فى المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه واقفا لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، انه يتحرك ولكن بالتدريج • ثم نراه هم بالشك فى العقليات ، لأنه يعتقد فى النوم أمورا ، ويتخيل أحوالا يعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ،

وقد يمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسـبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الاشياء التى سلم بأنها أثبت من غيرها وأصح ، انما كان اعتمد فى صحتها وثباتها على الحواس ، وقد تبين غـير مرة ان الحواس خداعة ـ وهو كذلك يرى فى نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو فى كليهما مضلل مخدوع ؟!

الفرق بين الغزالى وديكارت

الفرق عظيم جدا بين الغزالى وديكارت ، فان الغزالى خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد الى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه الى ما لديه من أصول • والغزالى نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأنمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن «الشرح» ومعناه فى قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قال : نور يقذفه الله فى القلب فيشرح به الصدر ، فقيل وما علامته ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود • يقول الغزالى : وهو الذى قال صلى الله عليه وسلم فيه (ان الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ! ! •

وما دام الغزالى لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام » كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك • وهذا يناقض كل المناقضة ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالى سببا لخمود الفلسفة فى الشرق كما كان « ديكارت » سببـا لنهوضها فى الغرب •

اسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما فى بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولا واعتدالا عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينة وسكون •

ويقول بول جانيه Paul Janet ان ديكارت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى Montaigne بل رأى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد • وكذلك يمكن أن نقول ان الغزالى انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به « ديكارت » هو الدعوة الى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى تنطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب الى الحقيقة من التعقلات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه • والمهم عنده أن تحسن التفكير ، لا أن تعرف كيف فكر الناس • والبناء الذى قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فان وحدة الذوق من موجبات الجمال •

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد • والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضى ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال •

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولا ــ لا يصح قبول شىء على أنه حق ، ما لم يعرف (ما هو) بغاية الوضوح •

ثانيا ـ تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال •

ثالثا ـ ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة •

رابعا ـ فرض نظام في الموضوعات التى لا يسبق بعضها بعضا في الطبع •

يقول « بول جانيه » : « ولهذه القواعد الاربع فى ذهن ديكارت معنى جد محدود • والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ، فان اغفال كل سلطة ، واقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان فى أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة [1] •

ومن جانب آخر ينبغى أن نفهم كلمة (وضوح) فان كل ما نعتقده بقوة ليس واضحا ، ولأجل وضوحه ينبغى أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الافكار بوضوح وتمييز ، فان مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هى التى تولد من أعماق العقل واضحة متميزة • وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول » •

والجارحة التى تدرك الحقيقة مباشرة هى البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحكام الحواس والخيال ، وانما يريد بها ادراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذى لا يتطرق اليه أى شك ، الادراك الحازم الذى يولد فقط من أضواء العقل •

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر • ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن ٢ + ٢ = ٤ كما أن ٣ + ١ = ٤ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجلاء •

---

(١) بدعة : هى الكلمة التى اخترناها لترجمة كلمة (nouveauté) لأنها أقرب الى المراد •

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحا حينئذ ؟ قد لا يثبت الا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك انسانا شك ، وأن هذا الانسان لا محالة موجود

وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة Je pense, donc je suis أنا افكر ، فأنا اذن موجود • ولا بأس فيما يرى ديكارت أن يُغَشّ الانسان ويخدع ، فان هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هي عليه، ولا ينافي أنه كائن موجود • ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال •

وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل الى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء •

ولفلسفة « ديكارت » كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا اليه في مؤلف خاص •

- ٢ -

الغزالي وبسكال Pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه الى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عني بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستنباط • وقد شغف بسكال بالرياضة ، وألف فيها وهو يافع • ثم مال الى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حمل عليها بضعف صحته • واضطراره الى حياة العزلة والانفراد •

واشتهر بسكال بكتابه « الافكار » Pensées وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه Lettres provinciales يمثل رأيه في حياة القسيسين والرهبان .

ووجه الشبه بين الغزالى وبسكال هو أن كلا منهما ابتدأ حياته بقوة وطهارة ، ثم انتهت به صحته الى الرضا بالخمول فى ظلال التنسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالى على كل علم ، وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالا فى ضلال !!

وكذلك ابتدأ بسكال حياته بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمس لنصرة العقل ، ومحاربة الوساوس القديمة . حتى لنجـــده يدافع عن الشهوات الكبيرة التى توجد الاعمال العظيمة ، كالحب والطمع . وذلك فى رسالته Discours sur les passions de l'amour ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم واضطر الى العزلة فى Port-Royal واختار الفلسفة الصوفية التى لخصها فى محادثته مع مسيو دى ساسى كما قال بول جانيه، ثم عول أخيرا على الاكتفاء بالانجيل .

ومما يقرب بسكال من الغزالى شكه فى قوة الطبيعة الانسانية ، فهو يرى ان الانسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لا يزول الا بعنـاية الله . وليس هناك شيء يهدى الانسان الى الحقيقة ، بل كل شيء يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فان كلا منهما يخدع صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبـادلون المـدح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التى تنافى المديح ، وكذلك لا يتكلم امرؤ فى حضرتك كما يتكلم فى مغيبك ، فالانسان فى نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق .

وقد بالغ بسكال فى احتقار العقـل . ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتج أبدا الى العقل ! ! ويتهم بسكال عقله

باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتى مطلقا من ناحية العقل ، وانما يأتى من شعور القلب ، ومن هداية الله ؟ ويجوز أن يأتى الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة ! وهذا بالطبع اسراف .

- ٣ -

الغزالى وهوبس Hobbes

ولد هوبس فى انجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس فى سن الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا مرة ثانية وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف «جسنّدى» صاحب الفضل على « موليير » و « فولتير » . ثم مات فى انجلترا سنة ١٦٧٩ .

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه La nature humaine

وكتابه Leviarhan أو La matière, la forme et l'autorité du gouvernement

وفى هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس عنده ليس الا حركة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة توجد الارادة . فليست الارادة اذاً الا رغبة مسيطرة . وهوبس لا يعرف باعثا للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست الا صورا لحب الذات .

وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعى Contrat social التى عنى بها جان جاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله انما هى سلم الى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى فى الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا الى السلامة من شر الأقوياء

غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثل فى الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التى كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه الا واجب واحد هو : حفظ الأمن .

ويرى هوبس تأييدا لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومروق.

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعى تأييد الملوكية ، ولا كذلك روسو حين يدافع عن هذه النظرية فانه يرى ان حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها بأنفسهم اضطروا الى ان يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الأجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل فى الملك كما يرى هوبس ، وانما تمثل فى شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريد .

الى هنا لا يرى القارىء أى تناسب بين هوبس وبين الغزالى والواقع أن الجمع بينهما بعيد لأن الغزالى رجل تضحية وايثار ، والخير عنده يرجع فى الاكثر الى نفع الناس ، فى حين أن هوبس يرى الخير فى أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه . ولكنى رأيت بعد البحث أنهما يتفقان فى تكييف وجهة الطبيعة الانسانية ، وان اختلفا فى غاية الأخلاق ، فاذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهرا للاثرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس الا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الاخلاقية ليست الا سعيا فى سبيل نفعه ، فكذلك الغزالى يتهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الذات .

والغزالى يسىء الظن بالطبيعة الانسانية ، ويرى العمل فى الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص الى أن هناك رياء « هو أخفى من دبيب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص فى عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن

اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء خفي ، فلولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس »٠

والفرق بين الغزالى وهوبس ، يرجع الى ان هوبس يريد ان يجعل وجهة الطبيعه الانسانيه اساسا للاخلاق ، فيكون الخـــير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره ٠ ولكن الغزالى يرى ان الخير لا يكون الا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لان وجهه الغزالى وجهة اسلاميه ؛ لا ضرر فيها ولا ضرار ٠

- ٤ -

الغزالى وبوتلير Butler

« بوتلير » هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٦٩٢ وتوفى سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالى على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما فى عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئا من المباحث الاخلاقية ٠ ويرى أنه لا شيء يدعونا الى طاعة قانون الاخـــلاق غير اعتمــاده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقا بين السريرة التى تحتم طاعة الأخلاق وبين حب النفس ما دمنا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنــــده ، وهنا يتفق مع الغزالى بعض الاتفاق ، لأن وجهة نظر الغزالى اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة فى الواجب وان كان لا يرى الواجب فى المنفعة ، فان هذا شيء قد يكون وقد لا يكون ٠ الا ان أردنا ما هو نافع فى الواقع ٠ على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالامور الاخروية ، ويرى اتفاقهما فى الامور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود ٠

وأجمل ما فى بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعه فى حين أن الغزالى يراها ضروبا من التكاليف ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٥ -

الغزالى وكارليل Karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ فى قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلاندة من والد يشتغل بصناعة البناء • تلقى مبادىء العلم فى قريته • ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره • وفى التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة أنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى • وفى سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم • وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الالمانية التى كانت سببا لذيوع شهرته • وتوفى سنة ١٨٨١ •

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات • حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها فى رأيه ليست الا افراطا فى العجب من الشىء ، حتى ينقلب هـذا العجب تقديسا وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئا الا لأنه اله ، أو رمزا الى اله • ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذى ترجمه الاستاذ محمد السباعى • وفى هـذا الكتاب فصل ممتع عن النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه • كان سببا فى تغيير وجهة أنظار الاجانب نحو الاسلام • ومن كلامه فى ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمـدا خداع مزور • وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثـل هذه الأقوال السخيفة المخجلة • فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليـون من الناس أمثالنـا ، خلقهم الله الذى خلقنا • أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هـذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج •

ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول • فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق • فوا أسفاه ، ما أسوأ مثل هذا الزعم • وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء والمرحمة !؟ » •

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة، واستعمال السيف ، وبين ان المسيحية نفسها لجأت الى القوة حين لم ينفع التسامح • ورد على من زعموا أن القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحلاوته • وعارض من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ، فان العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه برىء من هذه الهفوات •

الكفر والايمان

يتفق الغزالى وكارليل فى أن كلاً منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان فى فهم السريرة الانسانية ، وفى نتيجة التفكير • فالغزالى لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وانما الشرع هو الفيصل فى الحسن والقبح ، فما حسّنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح • ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدى ، وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا نحتاج فى كسبها الى شرائع ولا قوانين •

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الالحاد والتفكير يجتمعان فى قلب رجل واحد • والاخلاص عنده هو الأساس • ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الاحيان دينا صحيحا فى اعتقاد أهلها • فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس ،

أيقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم في حال من الأحوال . ولنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لآمنا بما كانوا يؤمنون به ، ولكنا واياهم سواسية في سائر الاشياء » .

ويتلخص رأى كارليل في أن كل دين فيه عنصر من الحق، والوثنية عنده ليست الا رموزا شعرية ، وتمثيــــلا بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى انما هو رمز وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو في المشاعر والافكار . والفرق بيننـا وبين الوثنيين يرجع الى الشكل أكثر مما يرجع الى الجوهر ، لأن كلا منا يرى التفكير في ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو أغرمنا بالكون كما أغرم الوثنيون به لرأينا الله في كل نجم ، بل في كل زهرة .

رأى الغزالي في الاجتهاد

لا يمكن لامرىء أن يكفر ، في نظر كارليل ، ما دام مخلصــــا في عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالي يرى أن الاجتهاد له حد محدود والمختار عنده أن الاثم والخطأ متلازمان فكل مخطىء آثم وكل آثم مخطىء ، ومن انتفى عنه الاثم انتفى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات الى ظنية وقطعية : ولا اثم في الظنيات اذ لاخطأ فيها . والقطعيات عنده ثلاثة أقسام : كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعني بالكلامية العقليات المحضة ، والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخـل في هذا القسم حدوث العالم ، واثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجـائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وارادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأه فهو آثم فان أخطأ فيما يرجع الى الايمان بالله ورسوله فهو كافر . وان أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما في مسألة

الرؤية وخلق الاعمال وارادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل ، ومخطيء من حيث أخطا الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولا مخالفا للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر • ويعنى بالاصولية كون الأجماع حجة ، وكون القياس حجه ، وكون خبر الواحد حجـه ••• الخ • وهذه المسائل أدلتها عنـــده قطعية ، والمخالف فيها مخطيء آثم • والفقهيات بعضها يكفر المرء بانكاره ، وبعضها ياثم بجحوده ، فانكارتحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر • وانكار الفقهيات المعلومة بالاجماع خطأ واثم •

تحرير هذه المسألة

الاصل فى الحكم الاخلاقى أن يتبع غرض العامل من عمله : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر • فالعمل الذى أريد به الخير ، هو خـير : وان كان ضارا فى ذاته • والعمل الذى أريد به الشر ، هو شر : وان كان نافعا فى ذاته • ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعـرف ما فى العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب • ومتى أفرغ الجهـــد فى البحث فقد أمن المسئولية ، واستحق حسن الجزاء •

ولقد تتبعت ما كتبه علماء المسلمين فى هذه المسألة فرأيتهم لايكادون يهتدون • وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الاخلاقية والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين • فالذى يقتل مسلما خطأ مدين من الوجهة القضـــائية ولكنه برىء من الوجهـة الاخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل • والشرع محق فى اعتماده على الوجهـة القضائية ، لأن فيها استئصالا للجرائم ، ولأن القاضى متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين •

والذى يدلك على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتفى بايمان المقلد • مع أن الايمان لا ينفع فيه التقليد • ويقول الباجورى فى

ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه : « والخلاف في ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما بالنظر الى أحكام الدنيافيكفى فيها الاقرار فقط . فمن أقر جرت عليه الاحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، الا ان اقترن بشيء يقتضى الكفر كالسجود لصنم » وهـذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالايمان به . والايمان شيء آخر غير ظواهر الاعمال .

الخطأ والعناد

كان على الغزالى أن يفرق بين من يخطىء فى العقليات بعد اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجـــو من نظر فى الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا فى وجه المسلمين . ولو أن الغزالى نظر هـذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابى ، الا ان أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالى كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك فى عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالمروق .

وقد جرت بينى وبين فضيلة الاستاذ الشيخ الدجوى مناقشة فى هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الاستاذ يرى أن الكفر يكفى فيـه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق الا بالعناد ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأى . وقد نقل الغزالى فى المستصفى « أنه ذهب الى ان مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معـاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور . وانما الآثم المعذب هو المعـاند فقط ، لأن الله تعـالى لا يكلف نفسـاً الا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى اذ استد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه

قال : « لا اثم على المجتهد مع أنه مخطىء ، وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فانه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفى الاثم عن المجتهد المخطىء يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التى حدثتك عنها منذ قليل •

ويظهر أنه كان لهذا الرأى أنصار فيما سلف ، فقد جاء فى فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه « وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد فى المسائل الكلامية كخلق القران ، ونفى الرؤية، وخلق الافعال ، فمعناه نفى الاثم والمعذورية ، لأحقية القول والمأجورية » وجاء فى ارشاد الفحول ص ٢٤١ ما نصه « مسألة الرؤية ، وخلق القــرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه فقيل يكفر • ومن القــائلين بذلك الشـــافعى فمن أصحابه من حمله على ظاهره • ومنهم من حمله على كفران النعم » •

وحكى ابن الحاجب فى المختصر عن العنبرى أن كل مجتهد مصيب• قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العنبرى والجاحظ ، ان أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لمـا فى نفس الأمر ، فباطــل ، وان أرادا أن من بذل الوسع ولم يقصر فى الاصوليات يكون معذورا غير معاقب ، فهذا أقرب • لأنه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكانى ص ٢٤٢ •

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالى فى كتاب « فيصل التفرقة » أن الرحمة تشمل كثيرا من الامم السالفة ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار، اما عرضة خفيفة، فى لحظة أو فى ساعة ، واما فى مدة ، حتى يطلق عليها اسم بعث النار • ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لعهده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مقرونا بأكاذيب تصرف المرء

عن النظر • ويرى فى كتاب « الصحبة » أنه لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية •

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيرا من الامم السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورن ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة مشوهة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب الا على ما يفعل المرء باختياره ؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر اليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

واذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الاقدمون ، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ؟ ولماذا تحكم بنفى الاثم عمن يجتهد ويخطىء فى المسائل الفقهية ، وتحكم بالاثم والكفر على من يجتهد ويخطىء فى المسائل الكلامية ؟ ألا يسع العذر جميع المفكرين على السواء ؟ فان لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحا بلا مرجح ، وهو فى رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشىء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعدورين كما يعامل الكفار • فانه اذا صح لديه أن مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، ان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور ، وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، أقول اذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذى لم يكلف فيه نفسا الا وسعها ؟

ولقد أعلم ان الجاحظ لو كان حيا وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن فى هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين • وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفا من أن علماء المسلمين نظروا الى هذه

المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية • وكان عليهم أن يتنبهوا الى الفرق بين القضاء والاخلاق ، فمن الواضح أن القتل الخطا معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذى يقتل خطا برىء أمام نفسه ، وأمام ربه، وأمام الواقع •

وأحب أن أنبه القارىء الى أنى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعى المدعون ان الشرع لا يعرف ذلك • وانما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع ان لم يتنبّه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبّه له ، وأن يضع له الحدود ، فان المعذور برىء ، ومن الظلم أن يقتل الابرياء •

- ٦ -

الغزالى وسبينوزا Spinoza

ولد « سبينوزا » فى أمستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية • وقد اضطهده اليهود لشكه فى تعاليم اليهودية • وهم أحدهم بقتله • فاضطر لذلك الى أن يعتزل فى لاهاى • وصار يكسب قوته بالعمل فى صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب• وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدةمرات، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة واباء • وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل • حبا فى الاستقلال • وعاش عيش الناسكين • وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية • ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره •

وأهم مؤلفاته Traité théologico-politique وقد نشر فى حياته، وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر • وكتابه Ethique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات •

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء • وان كل شيء هو الله • وهو في ذلك يخالف الغزالى اذ يرى لله وجودا غير وجود العالم • والله في رايه هو المدبر لهذا الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا في كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل ورقة ، وفي كل دابة ، الى آخر ما في الوجود • وليس للانسان حرية ، وان اعتقد أنه حر ، وانما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ، قال الدكتور رابوبرت : « وما كان ابعده عن الالحاد ، فقد كان مملوءا بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الالوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله [1] » • وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامي والحلاج ، ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود •

وغاية الاخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ، فكل علم لا يفضى الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالى في هذا المعنى الأخير : أي في احتقار كل علم لا يوصل الى السعادة ، وان اختلفت غايتهما بعض الاختلاف • فان غاية الاخلاق عند الغزالى هي السعادة الأُخروية •

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الامور الاعتبارية ، اذ ليس هذا التمييز الا صورة ننتزعها من الموازنة بين الأشياء • فاذا كان الغزالى يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه • فان سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو الضار • وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٦٦ •

قوتنا ويعدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع فى سبيلها العوائق • وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن •

ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة فى اكمال العقل لأنه فى رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة فى الواقع هى طمأنينة النفس ، التى تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شرا الا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الامن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذه النقطة الأخيرة •

ومن أظهر الفروق بين الغزالى وسبينوزا نفى الشخصية الانسانية ، ونفى المسئولية • وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول • أما الغزالى فيرى وجود الشخصية الانسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئا بغير هداية الله •

الغزالى وجسندى Gassendi

ولد « جسندى » فى بروفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ •

اشتغل حينا بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيسا وسافر الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية فى باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها الى أن توفى سنة ١٦٥٥ •

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة أبيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد • وأبيقور هذا يرى أن غاية الاخلاق هى السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة الا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة الا لأنها تحدث ألما ، ولا قيمة لأى عمل فى نفسه الا بنسبته الى اللذائذ والآلام • وقد كان أبيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضا العقلاء ، فكان

يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام الوقتية فى سبيل ما يعقبها من اللذائذ الباقية ، ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيهـــا فى نفس الأمر وحقيقة الواقع من البعد عن الآلام ، لأن ما فى الخروج على الفضـيلة من اللذة لا يساوى ما يعقبه من الالم ، وكذلك ما فى الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيرا من الآلام التى يتعرض لها باقتراف المنكرات •

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعيا الى اللذة وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقـــورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه • وقد أثر جسندى فى عصره تأثيرا شديدا • وحسبه أن كان من تلامذته « موليير » •

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضا من أهم أغراض الانســان • ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللاذن لذة ، ولعضو التناسل لذة • ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات • ولكن يجب أن تحـد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود • ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم • وهنا موضع الخلاف ، فان الزنا فى نظر الغــزالى ليست له أضرار دنيـوية ، ولكنه يذهب بصاحبه الى النار •

الغزالى ومالبرانش Malebranche

ولد « مالبرانش » فى باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيسا خمســـين سنة • وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة • وقد توفى بعـــد مرض طويل سنة ١٧١٥ •

وأهم مؤلفاته Recherche de la Verité و Traité de Morale وهو من أنصار ديكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حرية الفكر الى

اقصى حد • والقاعدة عنده أنه لا يصح ان نسلم تمـاما الا بالقضايا التى تظهر لنا واضحة الى حد أنه لا يمكننا أن نرفض التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتانيب الضمير •

والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحب خـيرا من الخيرات حبا تاما ، ما دمنا نستطيع ألا نحبــه بلا ندم • وهنــا يتفق مع الغزالى ، فيقرر انه لا يجب ان نحب غير الله حبا تاما مطلقا • ونحن نذكر أن الغزالى قرر ان الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لانه لا نظير له ، لافى الامكان ولا فى الوجود •

ويتفق مالبرانش مع الغزالى فى عدم الثقة بأحكام الخواس ، لانه رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ، ويضيف الى ذلك شكه فى الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله قصــيرا بالنسبة الى الفرح المسرور • ويرى الساعة على قصرها طويلة بالنسبة الى المتألم الحزين •

ويتفق الغزالى ومابرانش فى فهم الرجل الخير ، فاذا كان الغــزالى يقرر انه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر أن الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيدا الا بقدر ما يستحق، وبقدر ماتسمح له العدالة الالهية •

ويفترق الغزالى ومالبرانش فى تقدير اللذة • فهى عند الغزالى خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر • وهى عند مالبرانش خير دائما ، وان كان التمتع بها لايفيد دائما ، لأنها قد تصرفنا عن الله • ويختلفان كذلك فى فهم الألم ، فهو عنـد مالبرانش يكاد يكون خــيرا ، وان كان شرا بالفعل • والغرض من ذلك تبرير الاحتمال • أما الغزالى فلا يخص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل ما يناله من الأذى فى سبيل الله •

وبعد هذه المقارنات الموجزة • أوصى القارىء بأن يعتبر هذا الباب لمعة يسيرة فى جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة المحدثين ، وأحضه على اتمام ما فاتنى انمامه ، والله بالتوفيق كفيل •

الباب الرابع عشر

فى آراء علماء العصر فى الغزالى

تمهيد

لا يوجد هذا الباب فى النسخة التى قدمت للجامعة المصرية ، وانما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تتميما للسلسلة التاريخية ، التى أردت أن أبين بها قيمة الغزالى فى مختلف العصور .

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم فى الغزالى بجرأة وصراحة . وحجتهم فى ذلك أن الرأى العام لا يقبل فى الغزالى غير المدح الخالص ، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئا من سيئاته فى العلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد ، والا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء !.

واذ كانت الخطة التى جريت عليها فى نقد الغزالى تقضى علىّ بنشر ما له وما عليه ، عملا بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه فى هذا العصر ، وأدونها كما هى بلا زيادة ولا نقص ، معتمدا فى ذلك على محادثات خاصة دارت بينى وبينهم ، وعلى سند كتابى فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الاستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الاستاذين بصفة خاصة : لأنى لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشىء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التى قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر فى مصر لا ظهير لها ولا نصير .

- ١ -
رأى الدكتور منصور فهمى

الدكتور منصور علم من اعلام هدا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب ارائه ما يقدر لامثـاله عادة من الظلم والاضطهاد • فصلته الجامعه فى سنة ١٩١٣ مجاراة للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شاع اذ ذاك من أنه رمى النبى عليه الصلاة والسلام بحب الشهوات • وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين ، فنصحه يومئذ بان يصـلى الجمعة فى الازهر ليكون فى ذلك قطع لألسـنة المرجفـين ، وليستطيع دولته أن يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع ، ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالايمان ، لأن الله على ايمانه شـهيد ، فشكر لسعد باشا رفقه به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين • ثم رجع اليها عالى الرأس فى سنة ١٩٢١ •

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالى نال بها الدكتوراه من جامعـة باريس ، فلرأيه فى الغزالى قيمة خاصة • وهو لا يعد خصما للغزالى ولا نصيراً له ، وانما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات، ويغفر له أغلاطه، لأنه كأكثر المؤلفين لعهده يعتمد على ذاكرته ، والاعتمـاد على الذاكـرة يورث التناقض والاضطراب •

- ٢ -
رأى الشيخ على عبد الرازق

الاستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هـذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الادب والبيان فى الازهر منـذ اثنى عشر عاما ، وأماليه فى علم البيان دليل على عقليته النادرة • ولو مضى فى التأليف لأصبح قليل الأمثال •

وقد درس الغزالى بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحياد • ويقرر أن الغزالى أوجد حركة فكرية فى العالم الاسلامى • أما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الانظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين •

- ٣ -

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الازهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء المتازين اليوم من تلامذته • ومن الخطا أن تعرفه من مؤلفاته ، لانها مع قلتها ضعيفة ، ولان الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين ما يدونه فى تلك المصنفات ، اذ كان يريد أن يصل بكتبه الى افهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية • ورسالته الصغيرة فى تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيرا على هجره لهذا الاسلوب البديع ، واقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الاحياء •

ويكاد يُعد الشيخ الدجوى خليفة للغزالى فى هذا العصر ، ففيه تقريبا كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من الحدود •

- ٤ -

رأى الاستاذ جاد المولى

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر • تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة أرسلها دولة

سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فقضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة ردنج • ثم عين فى سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وقضى بها ثلاث سنين • ثم عاد فى سنة ١٩١٣ فعين فى قلم الترجمة بوزارة الاشغال فقضى بها ثلاث سنين • وفى سنة ١٩١٦ نقل الى الديوان العالى ، وظل فى خدمة البيت المالك الى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية •

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الاستاذ عبده خير الدين ليشتركا فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية • ويذكر الجمهور أن الأستاذ جاد المولى بك كان يتاجج غيرة على الغزالى ، وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى • فبدا لى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت الى منزله لهذه الغاية ، فتفضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان ألقاها عن الغزالى فى سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء •

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك فى أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالى فى نشره واذاعته • وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثنى عن ذلك بما كتبه الاستاذ الغمراوى بك فى كتاب الغرائز ويقول : ان الصوفى هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى النواحى النافعة ، كذلك يجب على الصوفى أن يراقب حركات المريدين • لأن التصوف ليس الا رياضة للنفوس •

وبالرغم من عناية الغزالى بالتصوف ، فان الاستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه يريد به النهوض بالافكار الاسلامية التى آمن بها الغزالى ، والتى كاد يقضى عليها تيار الفلسفة اذ ذاك •

- ٥ -

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش امام من أئمة المسلمين فى هذا العصر • وهو معروف فى جميع الاقطار الاسلامية ، وله أبحاث فى فلسفة التشريع تعز على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفى والاضطهاد ايما استفادة، ووقف بذلك على كثير من عقليات الامم والشعوب، وعده الانجليز من بين أعدائهم الألداء فى الحرب العالمية • ولقبوه بالرجل الخطر المخيف •

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالى • فهو أولا يؤمن بقوة الغزالى ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق، مع أنه كان « جاهلا » بفن الحديث • ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالى بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذيوع اسمه فى العالمين • ويقرر الشيخ جاويش أن الغزالى متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف فى الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئا الا وقد قال به فى بعض أحواله •

- ٦ -

رأى الكونت دى جالارزا

ظل الكونت دى جالارزا أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر فى كرم الاخلاق • وله مؤلفات فى الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعذره فى ذلك أنه أجنبى عن اللغة العربية •

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيرا بوجهته الروحية وله على الغزالى مأخذ واحد وهو منعه

الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئا من العلوم • ويرى أن الغزالى حرم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة ، وان كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من سواد الناس • والغزالى فى رأيه غاية الغايات فى الاخلاص •

- ٧ -

رأى الدكتور العنانى

الدكتور على العنانى من كبار الأساتذة فى هذا العصر ، وقد مكث فى ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة، وهو من أساتذة الجامعة المصرية •

والدكتور العنانى ينظر الى الغزالى نظرة خاصة ، من حيث تطور الفكر الاسلامى فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت تعتمد أولا على الوحى ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحى استقلالا تاما ، فرأى الغزالى أن يقف فى وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم فى الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة الى الأندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصيب •

والدكتور العنانى يرى أن الغزالى سلك تلك السبيل خضوعا للرأى العام فى البداية ، ولكنه تأثر بما دعا اليه فى النهاية ، وعاد حربا للعقل ، وسلاما للمبادىء الروحية • وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه الى ظاهر الشريعة ، فان الرجل كان أخذ أخذاً بمذاهب الصوفية ، وان كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس •

- ٨ -

رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر أن يفوته شيء من معارف هـذا الجيل • وهو أعـرف الناس بروح العرب والاسلام • وقد درس الغـزالى دراسة جيدة • وله على هـذا الكتاب ملاحظات يراها القارىء فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء • وقد قابلته أخيرا فذكر لى أنه فاته أن يضع ملاحظـة عما أخذته على الغزالى من تحريم الغناء فى أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالى محق فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغنـاء حين لا يوجـد موجب التحريم • لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضـطرب الأحوال •

ورأى الشيخ النجار فى الغزالى رأى وسط : فهو يرى أنه فى جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه فى ذلك أكبر تأثير • وينـكر عليه المبالغة فى متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع ويقول : هذا للفقير اما أن يكون فى حالة صحو أو فى حالة ذهول : فان كان ذاهلا فهو معذور ، ولا حكم له ، وان كان صاحياً فهو عابث ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعـله صالحا لأن يرقع به سواه ؟ ان هذا الا اتلاف !

- ٩ -

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه

شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين فى الأصول والتوحيد والأخلاق .

ويعد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن وجهته فى التصوف لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الاسلامية، والغلو الذى نراه فى الاحياء ليس الا تمكيناً للمعانى التى يدعو اليها الغزالى . وهو لا يرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وانما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال . والغزالى عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار . ومن البعيد أن يضع حديثا فى كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاخلاص.

- ١٠ -
رأى الشيخ عبد الباقى سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقى سرور من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين المعقول والمنقول وكتابه عن « ماضى الاسلام وحاضره » الذى نشره فى جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة والاجتماع . وهو فوق ذلك أغير الناس على وطنه ودينه ، وانه لعلى خلق عظيم .

ويرى الشيخ عبد الباقى أنه ليس للغزالى مذهب خاص ، وانما يتنوع دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى كتبه من تباين الآراء : فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو يناقش الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع فى يده كل الأسلحة الفكرية

ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره • والشـيخ عبد الباقى يرى أن التصوف فى كتب الغزالى انما كتب للصوفية ، لا لجميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين • ودليل هذا رجوعه فى أخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون أنه مات والبخارى على صدره• ولعدم اختصاص الغزالى بمذهب خاص وجهة شريفة ، هى تحرى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهـــده من مختلف المذاهب • وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد البـاقى ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية التى تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع بثمرات العقول •

- ١١ -

رأى الشيخ أحمد امين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التى تغرس الحياة فى نفس المستفيد• وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذى يعـرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبـير فى الحـركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل •

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالى حـوّل الناس عن الاشـتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية • وحبب ذلك الى الناس • وأسلوبه فى الترغيب والترهيب أنفع الأساليب فى هداية الجماهير • ويرى معنا أن الغزالى لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه • وأن آراءه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شىء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارىء ما وفقنا اليه في درس الاخلاق عند الغزالى ، نوصيه بان يرجع إن شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، والى المصادر الاجنبية التى ذكرناها في غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالى ، ليعرف صحة ما فى هذا الكتاب من مختلف الأحكام .

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة فى نقد الغزالى ، ولكنا نرجو أن يتنبه القارىء أيضا الى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته . ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لارضائهم أو اغضابهم ، وانما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هى خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس .

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أنى ترددت فيما نصحنى به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التى ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئا ، وانما أضفت اليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وانما أنا وحدى المسئول .

***

أما بعد فانى أسأل الله أن يجزينى بفضله على ما قدمت فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد مُنِيَ الناس بالجحود ، ونكران الجميل .

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الاسلام والأخلاق

يقول المرجفون انى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق • ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الأكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول • فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاما يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل •

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث !

قلت فى رسالتى : « ان ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق » فلما سألنى حضرات الأساتذة المتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق • ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له • ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب »

وهنا لا أكتم القارىء أنى حملت على الغزالى حملة شديدة ، ورميته

(*) نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤ •

بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : اذ يدعوه الى أن لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق ، والى أن لا يحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، والى أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على ما فات ، ويدعوه الى أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

ثم قلت فى التعليق على هذه الآداب الميتة « وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا وان يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل . من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف»!

عند ذلك تذمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الأستاذ الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالى فى ذلك لأن الدين الاسلامى دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق فى شىء أن يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت فى ذلك الصواب ؟

والظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا يا هؤلاء ! الدين الاسلامى دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجارون الأجانب الذين يتوددون اليكم بوصف الاسلام بالقناعة والرضا بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامى أبعد الأديان عن الزهادة ، وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام فى أن يرغب أتباعه فى امتلاك ناصية العالم ، فان هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية ، أو ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها فى الحياة ، وانما ترغم الأمم الضعيفة ، أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمروهم بالرفق بهم ، والابقاء عليهم ، كما أمروهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول ٠ وأقول لكم : ان هذه المعاملة لا تدل على ان الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الاسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب ٠ وهذه الملاينة، وذلك الرفق ، من الاسلحة الماضية فى استلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد ٠ وكذلك دعا النبى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ،وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين ٠

هذا ما أريد من أن الاسلام دين فتح وامتلاك ٠ ولو بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ، ورأى ما أنتم عليه من قلة وذلة ، لبلل رداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيبا ٠ أفتحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادىء السقيمة ، التى دافع عنها الغزالى وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

أنا لا أنكر أن التوكل فضيلة ، ولكن أنكر أن يكون معناه الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق ، وانما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمدا على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة ٠ ولكن على أن يكون صبرا على الجهاد لا صبراً على الضيم ٠ والخمولفضيلة ٠ ولكن على معني أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا ٠ فأما ما نقل الغزالى من أن بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة على ثلاثة ايثارا للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما يصفون !

ومن العجيب أن تجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبى وخلفائه،

وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبى وخلفائه فضيلة فضت بها الضرورة ، وها نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحنق المغيظ ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الأمور . ولو قضت الظروف اذ ذاك بان يكون النبى فرداً من جماعة يسوسها غيره ، لرأيناه ينمى ثروته ، ويسعى جادا فى استغلال ما يملك من أرض أو مال .. على أنى أعلم من سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على أنه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا أن نتلو قول أصدق القائلين : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونه قال : اتنا فى الدنيا حسنه وفى الآخرة حسنتين أو حسنات ؟! أوليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا ترونني أنكر أن تكون « الاخلاق » فى الاسلام معناها الرضا بالموجود وان فل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالى بعد ما عاشرته فى مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هذا البيان ؟

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عربية وفرنسوية • أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالى ، وهى : احياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والأربعين فى أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القران ، والادب فى الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، والجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى فى الأصول •

ومما يتعلق بالغزالى من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وشرح الاحياء للزبيدى وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة فى المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى ، وحياة الغزالى للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، واعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دى جالارزا فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ومبادىء الفلسفة تعريب أحمد أمين، والملل والنحل للشهرستانى ، ومعجم البلدان لياقوت •

وأهم المصادر الفرنسية :

Gazali, par Carra de Vaux

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher

Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier.

Encyclopédie de l'Islam (20ème livre).

Histoire de la philosophie, par Paul Janet.

Cours de philosophie, par E. Boirac

Averroës, par E. Renan.

فهرس

الموضـــوع	الصفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة





دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الساحل



الثمن ٥٠ قرشا

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر — ١٩٦٨